د. حسينة حاميد

أستاذة محاضرة بقسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة -الجزائر

الأمير عبد القادر الجزائري
منشد الحوار بين الديانات
الدور الريادي في بلاد الشام

ملخص البحث

سنحاول في هذه الدراسة تحديد ملامح شخصية الأمير عبد القادر في المشرق الذى تختلف تركيبته البشرية وضروفه السياسية في المغرب، كما سنحاول توضيح أن الفترة التي عاشها الأمير في الجزائر كمقاوم ضد الإستعمار لا تناقض الفترة التي عاشها في المشرق ولا تفصل عنها بل هي امتداد لها وتواصل معها، لأنّ الأمير عندما هاجر الشام أخذ معه مورثه الفكري، الثقافي والديني، بالإضافة إلى تجاربه تعامله مع الأوروبيين.

ان حادثة الشام و الأسباب التي دفعت الأمير لاتخاده موقف مناصرة المسيحيين على حساب المسلمين،واستغلال فرنسا لذلك الموقف بهدف تحقيق مشاريع استعمارية تفرض تساؤلات نعتقد أنها ضرورية لتحديد الغاية من هذه الورقة وتتمثل في: ما معنى الحوار بين الأديان ؟ وما حقيقة الموقف الذي اتخده الأمير عبد القادر من الصراع الذي نشب بين الطوائف في بلاد الشام؟ وهل هذا الموقف نابع من قناعاته الدينية والعقائدية أو من أجل مصلحته الشخصية ؟ وفيما استغلت فرنسا تجربة الأمير؟ وكيف كان موقف هذاالأخير من ذلك ؟.

سنحاول الاجابة على هذه الأسئلة وفق هذه نقاط :

1- مفهوم عبد القادر في بناء نظرية للحوار بين الأديان.

2- اجتهاد الأمير عبد القادر في بناء نظرية للحوار بين الأديان،

3- مصدر ثقافة الحوار بين الأديان عند الأمير عبد القادر،

4- الأمير عبد القادر و المشاريع الاستعمارية في المشرق،

Le but de ce document c'est de montrér la position de l'émir Abdelkader, quant au conflit des sectes en Syrie, cette position décompte-elle de ses convictions religieuses ou d'un intérêt personnel ? En quoi la France a-t-elle exploité l'expérience de l'émir ? Quelle a été la position de ce dernier vis a avis de cela.

Nous tenterons de répondre à ces questions conformément à ces positions.

1) Concept du dialogue entre les religions.
2) Initiative de l'émir Abdelkader pour l'établissement de la théorie du dialogue des religions.
3) Origine de la culture de dialogue des religions chez l'émir Abdelkader.
4) L'émir Abdelkader et les projets colonisateurs au Moyen-Orient.

مقدمـــة:

برز موضوع الحوار بعد انتهاء الحرب الباردة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية إذ بدأت مراكز التوجيه والتنظير في الغرب تبحث عن جهة جديدة لتوجه إليها نشاطها- إن لم يكن العسكري فالدعائي والإعلامي- وهكذا فإن الأجهزة التي أنشأت أيام الحرب الباردة لتشويه صورة العدو السوفيتي والتشهير به حولت اهتمامها إلى العالم الإسلامي، وقد رسمت مراكز التنظير الغربي قاعدة جديدة ونظرية جديدة لتعين هذه الجهة ولتبرير هذا التحول الجديد وهي نظرية صدام الحضارات التي أعلنها "هنتنجتون" وألح فيها على أن الصدام قائم منذ قرون وأنه لن ينحسر، ليضفي تكاملا على نظرية "نهاية التاريخ" التي دشنها "فوكوياما" بنهاية التاريخ وانتصار الحضارة الغربية، وبظهور مصطلح الصدام كان لابد أن يفرز مصطلح آخر مقابلا له هو مصطلح "الحوار"، وبالتالي يبرز الحوار كنقيض وبديل لمقولة الصراع، وبالرغم من أن هذه المصطلحات قد تم التنظير لها في المخابر الغربية، فإن ثقافة الحوار أصبحت سمة مميزة لثقافة العقود الأخيرة وربما تكون بمثابة رد فعل على الصراعات والصدامات التي شهدتها البشرية في هذا القرن.

معنى الحوار:

سنوظف في هذه الدراسة معنى الحوار في المفهوم الإسلامي والسبب في ذلك أنه لا وجود لرؤيا أحادية للحوار، فهو بالنسبة للغرب قائم على مجموعة من المفاهيم التي تمثل قناعات إيديولوجية تهدف من ورائها إلى السيطرة وقهر الضعيف،وبما أنه حوار قائم على فكر أحادي فهو حوار التهميش والاضطهاد والحقد والضغينة والانتقام والفتنة، وتكفير الآخر المختلف وإلغائه وتدميره والاستعلاء عليه والهيمنة عليه واعتباره عاجز. [1]. ولذلك فإن المسلم المعاصر لا يثق في نظرية الحوار التي يقوم عليها المفهوم الغربي[2] وبالتالي أسس مفهومه الذي يتماشى مع عقيدته وينبع منها ولا يتعارض في نفس الوقت مع مستجدات العصر بل يقبل على النهضة والحداثة والعولمة كمسألة تكامل وتثاقف وتعاون وتوحد. [3] مع ذلك سنضطر للعودة إلى المفهوم الغربي للحوار الذي وظفته فرنسا لاستغلال موقف الأمير عبد القادر لتحقيق أهداف و مشاريع استعمارية،

يعني الحوار من الناحية اللغوية المناقشة التي تدور بين أكثر من طرف حول موضوعات تهمهم أو مشكلات قائمة بينهم يبحثون عن حلول لها،كما أنه الوسيلة للتفاهم بين الأفراد والجماعات وتبادل الأفكار والآراء لتحقيق التعايش بين الشعوب ذات الديانات والثقافات واللغات المختلفة بغرض كسب المعارف وتبادل المنافع،

كان الحوار وسيلة ومنهج الرسول -ص- والمسلمين من بعده للدعوة إلى الحق وعبـــادة الله وتنظيم علاقات المسلمين بعضهم مع بعض وعلاقاتهم مع غير المسلمين. وينبع مفهوم الحوار ومقوماته في الحضارة الإسلامية من أصولها الدينية، القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما تعارف عليه المسلمون، وهو يقوم على مبادئ واضحة حددتها هذه الأصول، وهي الاحترام المتبادل وحرية الاختيار والعدالة والمساواة والتسامح، ويسعى إلى تحقيق أهداف إنسانية في إقامة مجتمع إنساني متعاون في ظل مكارم الأخلاق.

الحوار هو جزء هام من الحياة الإنسانية، وهو أولوية في العالم عامة وفي الشرق خاصة، نظرا لتعدد حضاراته وثقافاته وأديانه، وهو يعتبر جوهر الحضارة والثقافة والدين.

ولا شك أن هذا التصور يملي على المسلم محاور الالتزام بأسس محددة أهمها:

1- الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن: لقد رسم القرآن الكريم عبارات بليغة لوضع الأمور في مواضعها، فلكل مقام مقال، ولكل ظرف موقف، كما أنه لابد من الدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والجدال بالتي هي أحسن معناها اختيار طريقة المخاطبة حسب مقتضياتها، والموعظة الحسنة التي تقرب بين القلوب، وتعمق المشاعر بلطف. والقصد من هذا هو كشف الحقيقة دون إيذاء مشاعر الطرف المحاور. [4]

2- احترام الطرف الآخر : يجب أن يراعي الطرف المحاور الاحترام والتحلي بالأخلاق الفاضلة تجاه الطرف الآخر وتقديره بغض النظر إلى منزلته أو انتمائه الديني، [5]

وتماشيا مع طرح بعض الباحثين والذي نعتقد أنه ضروريا لاكتمال صورة الحوار القائم على المفهوم الإسلامي، الذين اعتمدوا الآية ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ واستخرجوا منها أربعة قوانين، نرى أنها تضبط مفهوم الحوار بين الأديان، وهي :

- قاعدة وحدة الأصل الإنساني﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾
- قاعدة التنوع الإنساني﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل﴾
- قاعدة التعارف ﴿ لتعارفوا﴾
- قاعدة الأكرمية ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[6]

أما ثقافة الحوار فهي ثقافة صنع السلام بين جميع الناس والشعوب والدول والأمم على الأرض كلها. نطلاقا من احترام إيمان وحضارة وثقافة وحرية كل إنسان على الأرض، إنها مشروع خلاص وسلام ومحبة العالم كله. [7]

وانطلاقا من هذا المفهوم الذي نعتقد أنه يتماشى مع طرحنا، سنحاول أن نربطه مع تجربة الأمير عبد القادر في الشام، ولذلك نطرح السؤال التالي: كيف كانت أحوال الشام عصر الأمير عبد القادر؟ وكيف استقبله الشاميون هناك ؟ وكيف كان تجاوب الأمير معهم؟

أحوال بلاد الشام عصر الأمير عبد القادر واندماج شخصية كبيرة مع مدينة عريقة

سنحاول تتبع واقع حياة الأمير عبد القادر عندما وصل إلى بلاد الشام، ولتوضيح هذا الأمر نرى أنه من الضروري التعريف بهذه المنطقة التي اختارها الأمير عبد القادر — أو اضطر لاختيارها–مقرا لإقامته بعد إطلاق سراحه من سجن أمبواز. فهذه البلاد المشرقية كان لها شأن كبير في الإسلام وقد ارتبط اسمها بالدولة العربية الإسلامية، فإن كانت الكوفة والبصرة وبغداد مما خطه العرب وشيدوه حين الفتح الإسلامي، فإن دمشق كانت سابقة في وجودها للإسلام. وبعد ذلك كان لها دور حضاري وثقافي بانتقال عاصمة الخلافة إليها،ذلك أن العمران والحضارة بمختلف مظاهرهما كانا ينتقلان من مدينة إلى أخرى بانتقال عاصمة الدولة، فدمشق كانت مركزا حضاريا قديما وما أهلها لتصبح المركز الحضاري العربي الإسلامي الأول على عهد الأمويين هو اتخاذهم لها عاصمة لدولتهم، (8)

هذا عن الجانب الحضاري الإسلامي، أما موقعها الجغرافي فالشام تقع في المنطقة التي تعرف حاليا باسم منطقة الشرق الأوسط The Middele East، الذي هو مهد الأديان السماوية الثلاثة. وحديثا انقسم الشام إلى أربع دول حديثة هي سورية ولبنان وفلسطين والأردن. أما في زمن الأمير عبد القادر كان الأوروبيون يطلقون على هذه المنطقة اسم الشرق The East وبما أن الدولة العثمانية التي كانت تمثل دار الإسلام كانت تعاني الضعف و تسبب لهم أي الأوروبيين مشكلة فقد أطلقوا مصطلح المسألة الشرقية The Eastern Question. وتقع بلاد الشام بين جبال طوروس شمالا وشبه جزيرة سيناء جنوبا، والصحراء شرقا والبحر المتوسط غربا. وكان الرومان يسمونها سورية وفلسطين، كما أطلق العرب عليها أرض الشام، بينما عرفها التجار الأوروبيون باسم الليفانت Levant. (9)

وفيما يخص التركيبة البشرية فإن سكان الشام كانوا ينقسمون إلى ملل وطوائف إسلامية ومسيحية ويهودية ؛ ففي أواخر القرن التاسع عشر كان العدد الإجمالي لسكان الشام يقدر بحوالي 3.300.000 نسمة، يمثل منهم المسلمون السنة حوالي 1.200.000 والمسلمون الشيعة حوالي 50.000 نسمة. وينقسم المسيحيون بدورهم إلى مجموعتين

رئيسيتين: المجموعة التي كانت تابعة للبابا في روما وعددها حوالي 600.000 نسمة والمجموعة التي لا تتبع البابوية وعددها حوالي 400.000 نسمة. وكل مجموعة مسيحية تنقسم بدورها إلى طوائف حيث تشمل المجموعة الأولى الموارنة أو المارونيين في لبنان وبلغ عددهم في ذلك الوقت حوالي 300.000 والكلدان ومركزهم في حلب واليونان الكاثوليك والأرمن الكاثوليك، أما المجموعة الثانية فتشمل اليونان الأرثوذكس والأرمن والجريجوريون واليعقوبيون والبروتستانت، أما اليهود الذي بلغ عددهم 100.000 نسمة فهم موزعين في دمشق وحلب والمدن الساحلية وفلسطين، هذه الأخيرة تمثل أكبر تجمعاتهم، [10]

أما عن الأسباب التي دفعت بالجزائريين للهجرة إلى الشام فهي تصب عامة في خانة الهروب من العيش تحت حكم الفرنسيين والعيش في كنف الإسلام والحرية الدينية. وعلى حد تعبير سعد الله فإن للمشرق سحره وجاذبيته في أذهان الجزائريين، وكل مسلم له في مخيلته وقلبه عاطفة قوية عندما يسمع اسم مكة والمدينة،واسم بغداد ودمشق.[11] أما بالنسبة للأمير عبد القادر فقد سبق له وأن زار دمشق برفقة والده قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر، والغالب كما يقول سعد الله أن اختياره[12] الإقامة في دمشق بالذات كان بإغراء من المهاجرين الجزائريين الذين سبقوه إلى هناك، [13]

وفي بيروت وبينما هو صاعد جبل لبنان تجمع الدروز(14) للترحيب به وطلبوا منه الاستراحة بينهم، فقبل دعوتهم و أحس الأمير بالحنين لأنه بين قومه العرب المسلمين، [15] وعبر هؤلاء الدروز له عن مدى إعجابهم به وبشهرته التي رفعت معنوياتهم منذ وقت طويل، كما نزل ضيفا على الكولونيل تشارلز تشرشل الإنكليزي ليلة واحدة ثم سار قاصدا دمشق، [16]

ودخل الأمير دمشق في حفاوة وتكريم، وتقدمت موكبة كتيبة من الجيش تعزف الموسيقى العسكرية، واستقبله أهل دمشق أحسن استقبال. ويقول الأمير بهذه المناسبة :"قد فرح بنا أهل البلد وخرجوا كلهم للقيانا الرجال والنساء ". وقال أيضا :"لقد استقبلني الدمشقيون أحسن استقبال وعدوا يوم دخولي مدينتهم كيوم عيد فالرجال والنساء قد تسابقوا أمامي ".[17]ويقول "تشرشل" أنه لم يدخل دمشق عربي على هذا النحو منذ صلاح الدين الأيوبي. [18] ويرجع "أيتين برونو" سبب ذلك الترحاب للأمير إلى المغاربة القاطنين في دمشق الذين عملوا على نشر وكشف شخصية الأمير المقاومة والمدافعة عن الهوية العربية الإسلامية. وحسب رأي "برونو" دائما فإن ذلك الاحتفال بالنسبة للشاميين يعتبر فرصة جديدة للتعبير عن معارضتهم للدولة العثمانية. [19]

وبدأ الزوار يتوافدون عليه وكانت أحاديثه في لقاءاته معهم تدور حول العلم والصلة الروحية بالله و لم يحدثهم عن نفسه، لقد كان الأمير مركز اهتمام العلماء والمثقفين أكثر من غيرهم، ولأنه كان يجمع بين ألقاب ثلاثة النسب الشريف من نسل الرسول – ص- ولقب العالم ولقب الزعيم المجاهد،فقد كسب تقدير وتبجيل هؤلاء المثقفين والعلماء على السواء. [20]

الأمير عبد القادر وفتنة الشام

بين سنة 1856 إلى 1860 رسم الأمير عبد القادر خط سيرة في الشام، فبعد أن كان الاستقرار في البداية صعبا، غدا وكأن كل شيء في صالحه حيث التحم مع أهل الشام حتى أصبح واحدا منهم، وذلك بفضل اتصالاته مع جميع علماء المدينة، هذه الاتصالات التي سمحت باندماج عائلة الجزائري في طبقة الوجهاء، الشيء الذي أتاح تجمع جالية من المغاربة كبيرة مثلت خمس سكان دمشق، كما أن الأمير عبد القادر أصبح عضوا في المجلس البلدي لمدينة دمشق،ويمارس التجارة وشراء الأراضي، مع ذلك فقد كان الأمير غير حر تماما في حركاته لأن تعليمات وزير الخارجية الفرنسي تقول بوجوب الأخذ بالاعتبار وعلى نحو منتظم جميع الوقائع التي يمكن أن تحدث حول الأمير والتي يمكن أن تبدو ذات طبيعة تهم الإمبراطور الفرنسي، [21]

ولغاية 1860 كان الأمير عبد القادر مهتما بتوطيد ملكيته الزراعية والعقارية، وعلى نفقاته، كما تفرغ للبحث والتدريس والتصوف. وهذا لا يعني أنه كان بمعزل عن الأحداث في دمشق، فقد كان يناقش مشاريع تحديث سوريا من إنشاء الطرقات والجسور بحكم عضويته في المجلس البلدي، [22]

لكن هذا الاستقرار الظرفي الذي تمتع به الأمير لم يستمر، فقد واجهته تحركات الطوائف في الشام، فالصدامات باتت أكيدة بين الدروز والموارنة. لقد تزامن وصول الأمير إلى دمشق مع صدور التنظيمات الخيرية 1856 التي تنص على المساواة بين المسلمين وأهل الذمة، التي جاءت كنتيجة حتمية لانتهاء حرب القرم. هذه الحرب التي شاركت فيها فرنسا وبريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسا.

وفي هذه الأجواء بدأت الفتنة الطائفية في ماي 1860 في شكل حرب أهلية بين الدروز المسلمين والموارنة المسيحيين في لبنان، وبسرعة فائقة انتقلت عدوى الفتنة إلى دمشق. وعندما انتشرت الأخبار حول عزيمة قيام مسلمي باشاليك دمشق ضد المسيحيين، أرسل الأمير مبعوثين إلى علماء حمص وحماه، وإلى بعض أصدقائه من مشايخ الدروز عند بداية الحرب الأهلية في لبنان يطلب منهم تهدئة الخواطر والاعتدال. وعندما وصلته الأخبار

من أن رؤساء الفتنة يقتربون من دمشق توجه برسالة جماعية إلى شيوخ الدروز خلاصتها أن الأمير ذكرهم بصداقته لهم واهتمامه بالصالح العام لجميع عباد الله، ثم حذرهم بأن الحكومة التركية وكل الناس يعرفون عداوتهم القديمة نحو مسيحيي جبل لبنان وبالتالي يمكن للحكومة التركية أن تقبل عذركم، لكنه يذكرهم بأنهم في حالة قيامهم بهجوم على مكان لم يكن سكانه في يوم من الأيام أعداء لهم، فإن ذلك سيحدث قطيعة بينهم وبين الحكومة. وحاول الأمير استثارة عواطفهم بقوله:" إنكم تعلمون كم نحن نتمنى الخير والسعادة لكم ولجميع سكان بلادكم.." [23]

وخلافا لما ذكر حول غرض هذه الرسالة الإنساني يعتقد "إيتيان برونو" أن الأمير كان يدافع عن مصالحه الشخصية،لأن الأمير كانت له مشاريع زراعية هامة في حوران. وينفي "برونو" أن تكون الأهداف السياسية لمصلحة الفرنسيين أو العثمانيين هي التي أملت عليه ذلك التصرف لأنه لا وجود لدلائل تؤكد ذلك، [24]

وقبل وقوع الفتنة في دمشق جمع الأمير عبد القادر العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق وجماعة المهاجرين المغاربة وخاطبهم:" إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم، أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيلا." [25]

مع ذلك انطلقت شرارة الفتنة في 9 يوليو 1860، وبعد أن أخبره قومه بهذا الأمر، ودون أن يضيع لحظة واحدة خرج برفقة أتباعه في تجاه المدينة حيث التقى بنفر من المسلمين تبدو علامات السخط على وجوههم، متجهين نحو الحي المسيحي. فاصطف مع رجاله وسط الشارع حيث خاطبهم معاتبا ساعيا لإقناعهم بالتراجع عن هذه الجريمة،لكنهم صرخوا قائلين " أنت الذي كنت أعظم ذباح للمسيحيين تأتي لتمنعنا من ذبحهم هنا في مدينتنا ؟ ابتعد عنا !" فرد الأمير"إذا كنت قد ذبحت المسيحيين، فإن ذلك كان طبقا لتعاليم شريعتنا. وهم المسيحيون الذين أعلنوا علي الحرب والذين كانوا مدججين بالسلاح ضد ديننا". فأجابوه : "ابتعد ابتعد." وراحوا يقتلون وينهبون، فهب عبد القادر للنجدة بمساعدة حوالي ألف جزائري؛ فحرسوا الشوارع وكان رجاله يطوفون بالمنازل يدعون المسيحيين "أيها المسيحيون تعالوا لا تخشوا منا إننا رجال عبد القادر." فاستجاب هؤلاء بعد تردد لخوفهم من خيانة جديدة. فوفر لهم الأمير المأوى في بيته وعند جيرانه وعندما ضاقت دار الأمير بهؤلاء اللاجئين، اقترح عليهم الذهاب إلى القلعة التركية لحمايتهم، لكنهم رفضوا لخوفهم من انتقام الأتراك والدروز، لكنه هدأ من روعهم بعدما

تعهد لهم بالأمن ومصاحبتهم إلى القلعة. وهناك اكتظت ساحة القلعة بآلاف المسيحيين من كل الطبقات والأعمار والجنس. ولم يتردد الأتراك في تقسيمهم إلى مجموعتين نساء ورجال للهتك بهم، فتدخل الأمير ثانية ومنعهم، وخرج لملاقاة الدروز القادمين إلى القلعة، حيث تحادث مع شيوخهم، ونجح في احتواء ثورة غضبهم، [26]

واستمر الأمير وأتباعه حوالي أربعة عشرة يوما متوالية يحرسون المسيحيين المشردين، وأشرف الأمير بنفسه على تطبيب الجرحى، وكان يقضي أكثر الليالي ساهرا وبندقيته في يده حرصا على من في حماه. ولم يكن الأمير عبد القادر الوحيد الذي تدخل لنصرة المسيحيين بل شاركه في موقفه وأعماله في صد الفتنة كثير من أعيان دمشق مثل الشيخ محمود حمزة مفتي دمشق، وآل العابد، وآل المهايني، وغيرهم، [27]

وخلافا لهذا الطرح الذي ذكره "تشرشل" وآخرون، ذكر "برونو" – استنادا إلى شهادات مهملة قال بأنها تتيح استكمال ملف لم يعرف إلا جزئيا- أن القارئ قد يستغرب رأيا يذكر أن الأمير عبد القادر لم يحقق جميع الآمال الكبيرة المنتظرة من شخصية تتمتع بنفوذ رفيع وتأثير معنوي يمكنه من استغلاله للتأثير على سكان دمشق. ودعم "برونو" الرأي القائل بأن علماء المسلمين ووجهاءهم في الميدان برهنوا على جهود أكبر وأحق بالثناء، ويضيف ذات الكاتب أن الأمير عند أول مظاهر الفتنة، انسحب إلى ملكية له في الأشرفية على بعد ساعتين من دمشق ليتجنب بلباقة أي إحراج، وأنه قرر العودة إلى المدينة بعد الرسل العاجلين له، وتوسلات الرعايا الفرنسيين والراهبات طالبين مساعدته، وعندما رجع إلى المدينة، شرع أولا بجمع كل من ينتمي إلى فرنسا من رعايا وموظفين ورهبان وراهبات، أما المسيحيين غير الفرنسيين فقد انظموا خلال هذه العملية إلى قافلته ولجئوا إلى بيته، وحسب ما وضحه "بيونو" فإن ذكر هذه الشهادة هو خدمة للحقيقة، ولتجنب الوقوع في مبالغات من صوروا عبد القادر كأسد يقذف بنفسه في المعركة لإنقاذ النساء والأطفال من أيدي المتمردين، وحسب رأيه فإن هذه الشهادة لا تلغي الخدمات الحقيقية التي أداها الأمير عبد القادر. [28]

مع ما تحمل هذه الشهادة من شكوك تلمح بل تؤكد بأن ما قام به الأمير هو تملقا لفرنسا لا غير، فإننا لا نملك الوثائق القاطعة التي تؤكد أو تنفي صحة هذه الشهادة،مع ذلك سنحاول البحث في هذا الأمر اعتمادا على ما بدر من الأمير من أقوال حول هذه الحادثة، ومن خلال مؤلفاته وتجاربه في الجزائر، التي توضح مواقفه علنا ندعم طرحنا القائل بأن الأمير ظهر من خلال موقفه هذا كرجل الحوار بين الأديان، ونطرح سؤال : ما

مصدر ثقافة الحوار عند الأمير عبد القادر؟ وعلى أساس أنه مسلم فلماذا أنصف المسيحيين على حساب المسلمين الدروز ؟

مصدر ثقافة الحوار بين الأديان عند الأمير عبد القادر

بعد الموقف الذي اتخذه الأمير إزاء المسيحيين انهالت عليه الأوسمة والهدايا من الدول الغربية امتنانا وإعجابا بموقفه النبيل،فأرسل إليه الإمبراطور الفرنسي وسام جوقة الشرف من المرتبة الأولى، وأرسلت له ملكة بريطانيا بندقية ذات فوهتين مرصعة بالذهب، والولايات المتحدة مسدسين، وروسيا وسام النسر الأبيض، والبروسيون وسام النسر الأسود، واليونانيون وسام المخلص، والايطاليون وسام موريس واليعازر،وجزيرة سردينيا صليبها، وكذلك البابا بيوس التاسع، ولم يتخلف العالم الإسلامي عن هذا الركب حيث أرسل إليه السلطان عبد المجيد الوسام المجيدي من الدرجة الأولى، وكان أفضلها في نظر الأمير – حسب ما ذكره برونو– الرسالة التي أرسلها له البطل القوقازي محمد عبد القادر شامل من منفاه في روسيا. [29]

بطبيعة الحال اعتبر موقف الأمير هذا انتصارا كبيرا للقوى المسيحية في المشرق العربي، ولا شك أن تلك الأوسمة الفخرية التي بعثتها تلك الدول للأمير تحمل في طياتها مفاهيم وتفسيرات مختلفة عن الأمير عبد القادر، وبخاصة عندما نعلم أن ذلك الموقف الذي اتخذه الأمير أخذ أبعادا كبيرة وفسره السياسيون والناس تفسيرات مختلفة ربما تختلف عن تلك التي يؤمن بها الأمير نفسه.

لقد عبر الأمير عبد القادر عن موقفه تجاه نصارى الشام من خلال عدة تصريحات رد بها على رسائل الشكر والامتنان التي وصلته، حيث خاطب الملكة فكتوريا "إنني لم أفعل إلا ما توجبه علي فرائض الدين ولوازم الإنسانية،" [30]وقال لنابليون الثالث أنه قام بواجبه كمسلم. [31]وردا على رسالة [32] أسقف الجزائر السيد "بافي" الذي شكره فيها على موقفه النبيل إزاء أحداث الشام أجاب الأمير: "...إن ما فعلناه من خير مع المسيحيين هو شيء لازم علينا بمقتضى الشريعة المحمدية وحقوق الإنسانية إذا الخلق كلهم عيال الله تعالى وأحبهم إليه تعالى أنفعهم لعياله وجميع الشرائع التي جاءت بها الأنبياء من آدم إلى محمد تدور على أصلين تعظيم أمر الله تعالى والشفقة على مخلوقاته وما عدا هاذين الأصلين فروع لا يضر اختلاف الشرائع فيها وشريعة محمد أشد الشرائع التزاما ومحافظة على الرقة والرحمة وكل ما يوجب الإتلاف ويدفع الاختلاف ولكن المنتصبون إلى شريعة محمد ضيعوها فضيعهم الله،.. ". [33]

من خلال هذه التصريحات يتضح لنا أن موقف الأمير يقوم على أساسين: فرائض الدين أو الشريعة المحمدية ولوازم الإنسانية أو حقوق الإنسانية، واستنادا على هذين الأساسين تكون المعادلة كما يلي: المنهاج القرآني هو السبيل للتعايش بين البشر، لأن هذا المنهاج هو الذي ينظر إلى البشر جميعا باعتبارهم أسرة واحدة،ينتسبون إلى رب واحد، وينتمون إلى أب واحد، وهذا ما قاله النبي –ص– في حجة الوداع " أيها الناس،.. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد،..كلكم لآدم وآدم من تراب،.."، [34]

وبالرغم مـــن هذه التصريحات لكن ما من أحد رغب أن يصدقه عند ذلك — يقول برونو–. نحاول إذن تقصي الأمر بعيدا عن دمشق، ولنرجع إلى الجزائر بلد الأمير،وإلى الفترة التي عايشها الأمير هناك كصبي وكشاب وكمقاوم علنا نجد ضالتنا، وخلافا للأقاويل التي تروج إلى أن أجواء الحرية في الشام هي التي دفعته إلى اتخاذ هذا الموقف، نعتقد غير ذلك لأن الأمير عبد القادر تشرب تلك الأخلاق والمبادئ من بيئته الدينية المحافظة، وعلى يد والده محيي الدين مقدم الطريقة الدرقاوية الذي اهتم بإعطائه تربية دينية شاملة.

في الجزائر تعلم الأمير أن تلك المبادئ هي التي تأسست عليها الدولة الإسلامية، هذه الدولة التي أسست لنظام تحمي به جميع رعاياها، ولا تقيم وزنا لاختلاف معتقداتهم وأجناسهم وألوانهم، من منطلق دعوة الدين الإسلامي الحنيف إلى التعايش، والاحترام المتبادل مع أبناء الأديان الأخرى، فقد قال الرسول —ص– :"ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية " [35] وهو القائل أيضا "من آذى ذميا فقد آذاني،"

وقبل أن نستعرض تجاربه مع الفرنسيين في الجزائر، نتوقف عند سنة 1855 في بروسة (تركيا) أين كتب الأمير عبد القادر "ذكرى العاقل وتنبـــيه الغافل"[36]، وبين فيه أن أصل الديانات عنده واحد لقوله " أساس الديانة وأصولها لا خلاف فيها بين الأنبياء ".[37]ولا يعني أن الانفتاح على الأديان معناه التخلي عن الإسلام أو الدعوة إلى توحيد الأديان[38]، أي نوع من الأوكيمينية كما يعتقد البعض، بل ندعم الرأي القائل بأن ذلك يعني الفهم صحيح للعقيدة الإسلامية انطلاقا مما جاء به القرآن الكريم والسنة المحمدية،وأكد الأمير ذلك من خلال رده على الذين هاجموا دين الإسلام في كتابه:"المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد". ويعتبر كتاب "المواقف"[39] كذلك مصدرا ومثالا للمنهج المتبع في شرح الآيات القرآنية عند الأمير عبد القادر انطلاقا من نص الآيات، ثم تفسيرها عن طريق التأويل الصوفي إلى معاني روحية

تتعدى الرؤية السائدة عن الإنسان عند المفسرين العاديين، ثم تكبر إلى معاني غيبية تشمل الإنسان في مفهومه الكامل. [40]

ومن بين ما جاء كذلك في "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل " مقولة الأمير التي أقامها الفرنسيون في "كاشرو" (معسكر) نصب تذكاري والتي تقول: "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا "[41]، والتي شكك فيها أبو القاسم سعد الله في موسوعته تاريخ الجزائر الثقافي ج6 ص 429، لكنه لم يستبعد في ترجمته لكتاب هنري تشرشل "حياة الأمير عبد القادر" ص 46، نسبة هذا القول إلى الأمير بسبب أنه يتماشى مع ما قام به من أعمال ومواقف، ولا سيما أثناء فتنة الشام.

ولأننا نرى كباحثين ومواطنين قد تجاوزنا مرحلة الحساسية التي كانت تمنعنا من أن نقرأ وندرس ونحلل ما يكتبه الغير عنا، ولأن عدم استبعاد "سعد الله" لمقولة الأمير – السالفة الذكر– سببه تماشيها مع أعماله ومواقفه، فإننا بدورنا لا نستبعد أن هذه الأعمال والمواقف تتماشى أيضا مع ما أقره الإسلام بوضوح تام حول حرية الاعتقاد لكل الناس، والتي تعني التعايش بسلام بين البشر،وعندما نحاول تحليل هذه المقولة نجد أن الفعل أصغى يهدف إلى التحاور والمناقشة بين الأمير والنصارى والمسلمين المختلفين والمتصادمين، ومهمة الأمير كرجل دين متفتح وحكيم أن يبحث عن نقاط مشتركة بالدرجة الأولى، كي يتمكن بفضلها من معالجة نقاط الخلاف أو تقليصها،وحين يقترن الخلاف بالمنطق والحوار دون أن تغيب نقاط الاشتراك، فإنه سيتحول إلى عامل في التقدم والتكامل. ويمكن القول أن نفس الشيء حدث زمن الرسول –ص– عندما بدأت الفتوحات الإسلامية وبات الصراع أكيدا بين النصارى واليهود من جهة والمسلمين من جهة أخرى،والشواهد التاريخية على هذه القضية كثيرة منها رسالة النبي – ص– إلى معاذ بن جبل – ض– قاضيه في اليمن،والتي جاء فيها:"لا يفتنن يهودي عن يهوديته." أضف إلى ذلك ما تضمنه الدستور الذي وضعه الرسول –ص– كميثاق للدولة الإسلامية بما يضمن حقوق اليهود، ثم الصحيفة المشابهة التي أقرت حقوق نصارى نجران باعتبارهم أمة في دولة المسلمين، حيث قال الرسول – ص– "... ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دنية،.." [42]. وسار الخليفة عمر بن الخطاب على نهج الرسول –ص– حيث منح إلى أهل القدس ضمانة واضحة لحريتهم الدينية، وحرمة معابدهم وشعائرهم : " هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا تنتقص منها، ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم،ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار منهم..." [43]

إذن نلاحظ أن ما سبق ذكره يؤكد طرحنا من أن الأمير عبد القادر نصر المسيحيين في الشام لقناعات دينية وعقائدية، وهذا الموقف ليس بالجديد بالنسبة للأمير عبد القادر لأن أعماله ومواقفه في الشام كانت امتدادا لأعماله في الجزائر، ذلك أن الأمير عندما هاجر إلى المشرق حمل معه موروثه من العادات والتقاليد والفكر الثقافي، ولأن التفسيرات توحي بأن الأمير كان في موقف ضعيف في الشام نظرا لإقامته الجبرية التي تفرض عليه تقديم فروض الطاعة والولاء لفرنسا، فإن التاريخ يشهد أن الأمير عبد القادر وهو في عز قوته كمحارب ومقاوم في الجزائر، كان يتعامل مع أهل الذمة بما يرضي الله، فعـــلاقته مع المسيحيين، وبالرغم من الاستعمار، كانت عقلانية و لم تتسم بالعصبية، فالأمير كان يعبر عن ذاتية خاصة وتفهم شخصي لروح الدين وحاجات العصر، وخلافا لرأي أسقف الجزائر السيد "هنري تيسيي" القائل بأن الجيش الذي احتل الجزائر سنة 1830 لا يمثل المسيحيين بالمعنى الصريح للعبارة،لأنه كان يتحرك باسم الدولة الفرنسية التي تمثلها ملكية شارل العاشر أولا ثم ملكية لويس فيليب،وأن الأمير يعتقد بأنها مقاومة وطنية ضد احتلال أجنبي، وأنها كذلك مواجهة بين المسيحيين والمسلمين[44]، فإن الأمير كان يميز بين الاستعمار الذي أعلن ضده الحرب وهو مدجج بالسلاح ضد الدين الإسلامي وتعاليم شريعته التي تفرض عليه محاربة المسيحيين –كما سبق وأن ذكرنا جوابه للدروز–، وبين رجال الدين الفرنسيين المسيحيين في الجزائر التي تفرض عليه شريعته كذلك معاملتهم بالحسنى، وما تصريحه في كنيسة "مادلين" في فرنسا إلا تأكيدا لهذا الطرح حيث قال: "حينما بدأت مقاومتي للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين له، لكن تبينت غلطتي، وعلى كل حال فإن مثل هذه الكنائس ستقنعني بخطئي." [45]

وذكر الأسقف "تيسيي" أن أول حوار إسلامي مسيحي جرى في القرن الماضي في الجزائر وفي فترة الحرب بين الأمير عبد القادر وفرنسا، وكان ذلك بمناسبة تبادل الأسرى بين الأمير والقس "سيشي"ونقل هذا الأخير أهم ما دار بينه وبين الأمير في ذلك الحوار الذي جرى بينهما، وأهم ما جاء فيه أن الأمير سأل الأب "سيشي": "ألكم إله واحد مثل المسلمين ؟" فأجاب "سيشي" : "لنا إله واحد فقط مجسد في ثلاث شخصيات " وهنا يقول "سيشي أنه أوضح للأمير سر الثالوث المقدس ". ثم سأل الأمير "ومن خلق العالم ؟ "سيشي": "خلق بكلمة من الإله". ثم قال الأمير "أكلمة الإله تعني الكتاب المقدس ؟" أجاب "سيشي" :" أجل إنه كتابه الـــمقدس المجسد بحب من أجل رجاله". ثم سأل الأمير " هل المسيح عيسى مات ؟" أجاب "سيشي": "نعم إنه مات" ثم استرجع "سيشي" قائلا:" لا إنه لم يمت"، قال الأمير :"أين هو الآن ؟" فأجاب: "إنه الآن في السماء في الجانب الأيمن لله أباه "،ويعيد الأمير سائلا: "هل يعود المسيح عيسى إلى الأرض؟" فأجابه

"سيشي" : "نعم سيعود عند نهاية العالم ليحاكم كل الرجال، ولكي يمنح جنته لفاعلي الخير، ويعجل لفاعلي الشر االدخول إلى النار". ثم سأل الأمير "أين هي الجنة ؟" فأجاب "سيشي" : "هناك أين يوجد الله ".

وخمن الأمير قليلا ثم سأل:"وماهي واجبات الكهنة الكاثوليكيين؟ "فأجاب: "تستطيع أن تعرف ذلك خاصة منذ أن وجد كاهن هنا في الجزائر، إن مهمتهم في الأرض تتمثل في مواصلة مهمة المسيح عيسى ومعاملة كل الرجال الذين ننظر إليهم كإخوة، بالحسنى بغض النظر عن دينهم " فقال الأمير :" بما أن هذا الدين حسن ويدعو إلى فعل الخير فلماذا لم يلحظه الفرنسيون ؟ إنهم لو يتبعونه سيكون ذلك رائعا ". فرد القس سيشي الذي كان ذكيا:"ستجيب على هذا السؤال بنفسك، إنك ترى دينك أيضا جيد فلماذا لا يلحظه المسلمون؟" عندئذ يقول سيشي "رفع الأمير يديه وعينيه إلى السماء، وبعد لحظة من الصمت طلب مني مواصلة الاستفسارات حول ديننا المقدس ".[46] وإن كان هذا الحوار يعبر عن استفسار أحادي الجانب، ويوحي بأن القس "سيشي"يعلم الكثير عن الإسلام وليس بحاجة لأن يطرح أسئلة على الأمير عبد القادر، فإنه يعتبر فعلا أول حوار بين الأديان في الجزائر، ويدعم رأينا القائل بأن الأمير تشرب ثقافة الحوار بين الأديان في الجزائر وفي عز قوته.

والشيء الذي نرى أنه يؤكد أن الأمير كان إنساني ليس فقط في المنفى لكن في الجزائر، أنه عمل أثناء معاركه ضد الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر على سن وتطبيق مجموعة قوانين حول كيفية معاملة الأسرى والمعتقلين من الجيش الفرنسي : "اعتبار أن أي فرنسي يتم أسره في المعارك يجب أن يعتبر أسير حرب، وأن يعامل كذلك إلى أن تتاح فرصة تبادله مقابل أسير جزائري" كما حرم تحريما قاطعا قتل أسير مجرد من السلاح، وحدد الأمير كذلك بأن أي عربي في حوزته أسير فرنسي، أن يعامل هذا الأخير معاملة حسنة، وفي حال شكوى الأسير، وفي حال شكوى الأسير من سوء المعاملة، ليس فقط أن المكافئة تسقط بل قد يرافق ذلك بعقوبات أخرى.[47]

أضف إلى ذلك فإن ما جرى سنة 1841 من تبادل بين الأمير عبد القادر وأسقف الجزائر السيد "ديبوش"، عندما طلب هذا الأخير من الأمير إطلاق سراح أحد السجناء، يدعم مقولة الحوار بين الأديان الإسلامي والمسيحي، لأن الأمير رد على "ديبوش" قائلا :" لقد كان الأجدى بك، بوصفك عبد الإله وصديق الإنسان ليس فقط أن تطلب مني إطلاق سراح أسير واحد، بل أن أطلق سراح كل الأسرى المسيحيين ". وأضاف مستشهدا بما جاء في إنجيل العهد الجديد "عامل الآخرين بمثل ما تريد أن تعامل به ".

وأوضح الأمير موقفه في الأخير قائلا: "قد يكون الأسقف قد أدى مهمته على أحسن وجه،..لو قام بجميل من هذا القبيل لصالح عدد مماثل من الأسرى المسلمين القابعين في السجون الفرنسية "[48]

إذن هذه الخاصية الإنسانية التي تميز بها الأمير لا تخرج عن نطاق ما امتاز به الإسلام من طابع الإنسانية اعتبارا لكون آدمية الإنسان لا تتحقق بدون هذا البعد، والإنسانية لا تتحدد في المادة والروح كما في القانون الطبيعي، وإنما الجسد والروح معا في تناسق وتوازن، وهذا التناسق بدوره يفرض على الأمير عدم إهمال المادة، لذلك كان الأمير يؤمن بالتقدم الإنساني، وبضرورة الأخذ بأسباب الحضارة الغربية لتجديد وإحياء الأمة الإسلامية الراكدة، والفكر الإسلامي الجامد، لأنه يرى أن العلوم العقلية لا تناقض الشرع، فقد كان يدعو إلى العلم مثلما كان يحرض على الإيمان ناصحا رجاله : "احذروا أن تكونوا أحد النوعين من الرجال، العالم أو المؤمن بل كونوا الاثنين معا،" [49] وإذ هو كذلك فإنه لم يخف إعجابه بالإنجازات العلمية التي حققها الغرب، وبالخصوص الفرنسيين الذين اهتموا اهتماما كبيرا بالعلم العقلي التطبيقي، حيث قال : "وقد اعتنى علماء فرنسا، ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه، فاستخرجوا الصنائع العجيبة، والفوائد الغريبة، فاقوا بها المتقدمين، وأعجزوا المتأخرين، رقوا بها أعلى المراقي، وحصل لهم بها الذكر الباقي ".[50]

وبمناسبة الاحتفال به في باريس 1852 بعد خروجه من السجن، زار الأمير عدة أماكن في باريس، وأبدى إعجابه بالمنجزات الفرنسية ؛ فسمى السكة الحديدية طريق النار، وزار كذلك المكتبة الوطنية، والمطبعة الرسمية، وأعجب بطباعة الكتب، وقد طبعت أمامه ورقة عليها اسمه –يقول سعد الله – للتأثير عليه، وروى عنه أنه قال بالدارجة "باريز(باريس) كلها عجب،وأعجب ما فيها بيت الكتب،لله در العقول".[51]

مما سبق ذكره يتبين لنا أن الأمير عبد القادر كان متفتحا ومتفهما للحداثة،وكما أنه يدعو إلى التجديد فهو ينبذ التقليد، مع ذلك كان الأمير يفرق بين الحضارة الأوروبية المادية وبين دعاة تلك الحضارة المزيفون، وأدرك الأمير ذلك من خلال تجربته مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، إذ تبين له أن الفرنسيين بعد الاحتلال لم يكن هدفهم نشر الحضارة الأوروبية، ولا التعاون مع الجزائريين بغرض إدخال المفيد من تلك الحضارة، لكن هدفهم كان الاستغلال والهيمنة، [52] وإزاء ذلك يرى الأمير أن واجبه كمسلم أن يحمل التحديث التقني إلى الشرق، وبما أنه يرى الغرب عبارة عن أمة بدون روح، فهو يعتقد أن دينه يفرض عليه تلقيح الغرب بروحانيته، [53] حيث أحس أن النبي –ص– أمره أن يكون

واسطة في إبلاغ هذه البشارة إلى أمته، فهو مكلف بأن يحمل البركة الإسلامية كبركة إبراهيم إلى الغرب، [54] وليس هذا بالجديد بالنسبة للأمير، فقد كانت مقاومته للفرنسيين قائمة على أساس هدف يتمثل في توحيد الشعب الجزائري، وتوعيته، وإلحاقه بركب العالم المتقدم، وبناء دولة تجمع بين الإسلام وحاجات العصر بمعنى التوفيق بين التقليد والتجديد، وبين الأصالة التي تمثلها الشريعة الإسلامية والمعاصرة التي تمثلها الحضارة الأوروبية،

وحاصل القول أن مصدر ثقافة الأمير عبد القادر منبعها الشريعة الإسلامية والمنهاج القرآني والسنة النبوية من منطلق أن الإسلام جاء للبشرية عامة،وليس لقوم أو طبقة خاصة، وجاء للفرد والجماعة موفقا بين النزوع للفردية والالتصاق الغريزي بالغيرية و الاجتماعية دون النظر لانتماء عرقي أو ديني، وإن كانت هذه النتيجة تعبر عن قناعاتنا، فإننا سنحاول أثباتها بتتبع مواقف وتصرفات الأمير عبد القادر بعد فتنة الشام، ذلك أن القضية لم تنته عند ذلك الحد، بل إنها بدأت بعد ذلك الموقف المناصر للمسيحيين حيث وجد الأمير نفسه في امتحان أمام الدول الأوروبية و مشاريعها الاستعمارية في المشرق،فهل سيحافظ الأمير عبد القادر على مبادئه وقناعاته الدينية أم أنه سيسير في ركب مجاراة الروح الاستعمارية التي تسعى لاستمالته ليكون اليد التي يضرب بها الغرب المسيحي الشرق الإسلامي ؟

الأمير عبد القادر والمشاريع الاستعمارية في المشرق :

لقد أبهر الأمير عبد القادر العالم المسيحي بموقفه المتسامح مع نصارى الشام، وأحاطوه بمختلف الأوسمة والهدايا، تلك كانت بداية المخططات الأوروبية للشخص الذي كانوا يبحثون عنه لتنفيذها بدلا عنهم، لأنه لطالما تساءل ساسة الدول الكبرى عن الدور الأمير الجديد بعد أن أطلق سراحه، وبعد تكهنات حول هذا الدور وجدوا ضالتهم في شخصية الأمير بعد موقفه السالف الذكر. لم تكن تلك الأوسمة الفخرية التي أرسلها ساسة الدول الكبيرة سوى تعبيرا عن أدوار جديدة، يمكن خلالها لكل دولة أن تحقق أحلامها السياسية في أملاك الدولة العثمانية،

سيقتصر بحثنا هذا على الأطماع الفرنسية لأسباب نتعرض لها في ثنايا بحثنا، وهذا لا يعني أن بريطانيا وروسيا[55] لم تكن لها أطماع ؛فكاتب مذكرات الأمير السيد تشرشل البريطاني الذي كتب مؤلفين الأول بعنوان: "عشر سنوات في جبل لبنان"، والثاني: الدروز والمارونيون تحت الحكم التركي،وكان يقول "عندما ينفصل جبل لبنان عن تركيا، فيجب أن يغدو انكليزيا أو يشكل جزءا من دولة جديدة "،وكتب في عام 1853 في مؤلفه الأول :"يجب أن يكون واضحا، أن سوريا ومصر، في حال استمرار التفوق البريطاني،

ستقعان تحت السيطرة الانجليزية أو تحت تأثيرها " [56] ولأن الأمير يعتقد بوجوب بقائهما عربيين مستقلين، فقد خاطب الأمير تشرشل "إنكم غربيون أيها الأوروبيون، تفكرون من أجلنا ! من المؤكد أنني شرحت لك أن "بوجو" انتصر علي بالخيانة، وكذلك أيضا لأن جيشه كان يفوق جيشي إنما ليس بتفكيره، أنت تعرف شعبي، وترى هنا الاستبداد، كما ترى الشقاء، أعطني الوقت، انتظر زمن النهضة، نعم سأستخدم تقنياتكم، لكن سأطعم الغرب بالروح التي تنقصه، إنكم عالم بدون روح.." [57] فأجاب تشرشل "أيها الأمير يا صديقي، ما تقوله هام جدا : يجب أن أصرح لك بأنني قررت أن أكتب عن كل هذا، سنناقش موضوع الشرق، أنا وأنت، هناك ونحن جالسان عل تلك المصطبة ننظر إلى البحر ونحن نشرب الشاي، يجب أن تؤدي الكتابة خدمة ما لمشاريعك ومشاريعي،.. "[58] وإذ نحن تأملنا ما دار بين الأمير وتشرشل ندرك أن تشرشل كانت له غاية من كتابة السيرة الذاتية للأمير عبد القادر، وربما كان هناك مشروع، لكن الدعايات التي روجت لصداقة الأمير لنابليون الثالث، وعهده له بأن لا يرفع السلاح أبدا في وجه فرنسا، وحماية فرنسا له ولأولاده ودعمهم له ماديا ومعنويا كل ذلك جعل الانكليز يتوجسون منه [59]. وربما ذلك كان السبب في صرف النظر عن هذه المشاريع البريطانية ليبقى الباب مفتوحا فقط للمخططات الفرنسية في الشرق.

1- الأمير عبد القادر ومشروع المملكة العربية :

كان لويس نابليون الثالث يسير على خطى عمه نابليون الأول في مشروع تمدين الشرق وفقا لتعاليم الحضارة الغربية، وإن لم تكن الثقافة هدفا رئيسيا، إلا أنها كانت تحتل جزءا ضئيلا بالقياس إلى الأهداف العسكرية والاقتصادية الخالصة، وفي طليعتها تحدي انجلترا وتدمير خطوط مواصلاتها إلى الهند، وفي ذلك كان مفروضا على نابليون أن يواجه أمة شرقية ذات حضارة قديمة تختلف اختلافا كبيرا عن الشعوب الأوروبية التي عرفها وخالطها ودرس عاداتها وطبائعها وأخلاقها،وبعد أن فشل نابليون في إنشاء دولة عربية بقيادة "محمد علي" تساعد على تحقيق آماله وأطماعه في الشرق والغرب، وجد البديل في شخصية الأمير عبد القادر عقب أحداث الشام،

وحسب الوثائق الفرنسية فإن ثمة مشروع فرنسي يقضي بانتزاع سورية الجغرافية (سورية لبنان والأردن وفلسطين) من الدولة العثمانية وإقامة دولة عربية مستقلة فيها تحت زعامة الأمير عبد القادر، كما صدرت في باريس في تلك الفترة منشورات عن سورية ومصر والسويس تشتمل على مقالات لرجال الفكر والسياسة عن مستقبل هذه المنطقة،

واتفقت الآراء في تلك المنشورات والمطبوعات على أن مصير فرنسا في الشرق متوقف على قيام دولة تفصل قناة السويس عن الدولة العثمانية وتكون دولة حليفة لفرنسا، [60]

وبما أن الأمير عبد القادر اعتبر حليفا لفرنسا بعد 1847، فقد نشر في باريس عام 1860 كتاب لمؤلف مجهول بعنوان " عبد القادر – إمبراطور البلاد العربية ". وقد ندد هذا الكتاب بالسلطنة العثمانية وشجب الفكرة القائلة بوجوب المحافظة على تكاملها، وتضمن الكتاب أيضا دعوة لانفصال سوريا عن السلطة العثمانية، وإعلان دمشق عاصمة لها، وأهم ما جاء في هذا الكتاب :" إنه يمكن تكوين إمبراطورية من بلدان الشام، لكن هذه الإمبراطورية تفتقر لرجل ينهض بشؤونها فلماذا لا يكون هذا الرجل الأمير عبد القادر ؟ إنه ذو صيت واسع في هذه البلاد، وهو عربي، وسيجد في العرب كل العناصر التي يمكن أن تتجاوب مع مطامحه وأخلاقه الكريمة وشجاعته، وقد علم الأوروبيين في فتنة الشام الأخيرة حقائق القرآن، كما ينبغي أن تفهم، وكما يجب على المؤمن أن يلتزم بتنفيذها "[61]

ومنذ 1857 بدأت الصحف تروج لفكرة إيجاد حل لبلاد الشام، وبخاصة الصحيفة المارونية "بيرجيس باريس" في باريس، وتبعتها صحف أخرى، وكانت نتائج تحاليلهم أن إعلان الخط الهمايوني 18-2-1856 ونتائج معاهدة باريس 30-3 – 1856 عقب حرب القرم، سمح للدولة العثمانية أن تكون من بين الأمم المتحضرة، وهذا بدوره أدى إلا نتائج خطيرة على المقاطعات الشامية.وبالتالي أصبح من الضروري إيجاد حل لهذه المقاطعات على شاكلة الحل الذي سمح لمصر أن تتحرر على يد محمد علي من نفوذ الأتراك، وعقب أحداث الشام ظهر الأمير عبد القادر بمثابة الرجل الذي يبحث عنه، حيث طرح حل تنصيب الأمير في تلك الفترة،

وحسب ما ذكره "برونو" فإن مهندس ذلك الاقتراح كان الجنرال "قارتينبري" حاكم الجزائر آنذاك، في تقرير سري بتاريخ 13 جوان 1860 بخصوص هجرة الجزائريين إلى سورية، وركز الجنرال "قارتينبري" في تقريره على قناعته المبنية على جملة من القرائن تفيد بأن الأمير ما يزال يرغب في أن يلعب دورا، وبما أنه يعتقد بأن الأمير لا يفكر بالعودة إلى الجزائر، بالرغم المكانة التي يحظى بها، فإن أحداث الشرق غير الثابتة حسب ترجيحه تبين أن الأمير بقوة ذكائه وطاقته ومهارته يمكن أن يصل إلى مكانة بدعم من المهاجرين الجزائريين، الذين يمثلون قبائل محاربة لها ثروة حصلوا عليها من تنازلهم عن ممتلكاتهم، وبالتالي يقترح وجوب تشجيع هجرة الجزائريين إلى المشرق، ثم يتساءل أي مصلحة لنا في أن نرى الإسلام يجدد قواه ؟[62] ويعود "برونو" ويذكر أنه حتى سنة

1860 فإن التقارير تؤكد على انصراف الأمير إلى توطيد ملكيتة الزراعية والعقارية، واهتمامه بالبحث والتدريس،

وإذا سلمنا بصحة هذا الطرح، فإن الفرنسيين في الجزائر هم الذين خططوا لهذا المشروع الذي تزامن مع زيارة نابليون الثالث إلى الجزائر في سبتمبر 1860، وإصداره سنة 1863 رسالة إلى حاكمه في الجزائر الجنرال "بليسيه"، أهم ما جاء فيها "أن الجزائر مملكة عربية وأنا إمبراطور العرب مثلما أنا إمبراطور الفرنسيين،..إن الجزائر ليست مستعمرة بمعنى الكلمة ولكنها مملكة عربية،" [63] وبما أن الأمير عبد القادر برز كرجل دين متفهم لروح العصر، وهو حسب الطرح الغربي المسلم الذي يعرف الدين على حقيقته، وبما أن الأفكار الدينية هي المسيطرة على شعوب الشرق في شتى العصور، فإن نابليون شخص داء الشرق في دينه، وأراد أن يستعمل دواءا من جنس الداء،وبذلك يكون الأمير عبد القادر بمثابة لقاح ضد الدين،

ونعتقد أن الإجابة على السؤال الذي طرحه "برونو":أي مصلحة لنا في أن نرى الإسلام يجدد قواه ؟السالفة الذكر هي: إن سياسة نابليون كانت قائمة على ترويض الدين لا مقاومته، وهذه السياسة ذات أبعاد خطيرة ؛ فهي تهدف بالدرجة الأولى للسيطرة، ولكي تتحقق هذه السيطرة يجب إيجاد الصيغة المقبولة لدفع فكرة القابلية للخضوع التي قصدها الشيخ عبد الحميد بن باديس، والمفكر مالك بن نبي، والتي أطلقا عليها القابلية للاستعمار، وبمعنى آخر فإن الإمبراطور الفرنسي يعتقد بأن الأمير عبد القادر الذي سلم سنة 1847 هو الطعم أو الأداة التي بواسطتها سيسلم أهل الشام بالسلطة الفرنسية،ولكي نفهم هذا الأمر نحاول تفسير مصلحة نابليون في الترويج لفكرة المملكة العربية في الشام بالذات وتمليك عبد القادر عليها وموقف هذا الأخير من ذلك،

إذا كان النفوذ الاستعماري في مصر من نصيب إنجلترا بعد 1840، فقد كانت سوريا منطقة نفوذ استعماري لفرنسا، واهتمام فرنسا ببلاد الشام قديم يرجعه البعض إلى أيام شرلمان [64]. أما الصلة الحديثة بين فرنسا والشام فترجع بصورة محددة إلى معاهدة الصداقة والامتيازات بين السلطان العثماني سليمان القانوني والملك الفرنسي فرانسوا الأول في عام 1535م. ولكي تؤكد فرنسا مسؤوليتها نحو الكاثوليكية داخل الدولة العثمانية، تبنى لويس الرابع عشر في عام 1646 قضية الجالية المارونية في لبنان، في أعقاب زيارة الأساقفة المارونيين لفرنسا. وقد رافق هذا الاتجاه ازدياد عدد الكاثوليك في بلاد الشام بسبب امتداد نشاط الجزويت والفرنسيسكان، وغيرهما من المؤسسات الكاثوليكية إلى

الشرق، لتثقيف الكاثوليك في الليفانت، ومحاولة ضم المسيحيين غير الكاثوليك من أتباع الكنائس الشرقية، [65]

وكان لتضارب المصالح بين الدول الأوروبية النصيب الأكبر في إشعال فتيل الفتنة بين الدروز المسلمين بقيادة إنكلترا، والمارونيين الكاثوليك بزعامة فرنسا، ولأن المقام هنا لا يسعنا لسرد تفاصيل تلك الصراعات لأنها ليست موضوع بحثنا، لكن نحاول تسليط الضوء عن الفترة التي عايشها الأمير عبد القادر في الشام 1860 وتأثر بها وتفاعل معها إلى درجة تدخله لحماية النصارى ليصعد نجمه من جديد بتمجيد الغرب لتصرفاته وأخلاقه.

يعتبر عام 1840 بداية مرحلة جديدة في تاريخ طائفتي الدروز والموارنة، نعني بذلك أنه بانتهاء حكم محمد علي على بلاد الشام، وحصر أملاكه وحكمه في مصر على إثر معاهدة لندن 1840، بدأت سلسلة النزاعات بين هاتين الطائفتين، [66] ويرجع سبب ذلك إلى سنة 1831 أي عندما احتل محمد علي دمشق، وأهم ما قام به هذا الأخير في تلك الفترة، اتخاذه "حنا باي" المسيحي كوزير ومستشار. وكان المشكل الذي أقلق السيد "حنا" يتمثل في محاولة تحسين ظروف وأوضاع النصارى،الذين كانوا يعانون ولفترات طويلة من مضايقات وعراقيل ضد حرية العبادة، وبدعم من "محمد علي" عمل "حنا" على تحسين حالهم، وسمح لهم ببناء معابد وكنائس، وممارسة شعائرهم الدينية علنيا وبكل حرية،وبذلك يكون محمد علي قد سوى بين النصارى والمسلمين في الحقوق والواجبات،

النصارى عما يجول في خاطرهم في حرب القرم سنة 1854، عندما دخـــلت كل من بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا،حيث استغل النصارى ذلك الوضع ليسخروا من الأتراك المسلمين علنا لأنهم طلبوا مساعدة أوروبا المسيحية، ولم يقفوا عند حد الازدراء والسخرية بل طالبوا بالاستقلال عن الدولة العثمانية،رافعين شعار " يجب أن ترجع سورية بصورة طبيعية إلى فرنسا لكي يتمتع المارونيون بالحرية ". وانتشرت هذه الأخبار بسرعة مما أدى إلى تأجيج نار الحقد عند المسلمين ضد المسيحيين.لكن فرنسا وبريطانيا اللتان دخلتا الحرب تماشيا مع مبدأ الحفاظ على كيان الدولة العثمانية للمحافظة على امتيازاتهما ومصالحهما، رأتا أن على الأتراك تحسين من أوضاع أهل الذمة في المشرق كتعويض عن حرب القرم، ونتج عن ذلك صدور الخط الهمايوني الذي سمي بالتنظيمات الخيرية، الذي سوى بين المسلمين والنصارى وألغى الجزية التي كان المسيحيون يدفـــعونها نظير حماية الدولة العثمانية لهم، [67]

كانت التنظيمات الخيرية التي أقرها السلطان عبد المجيد هي قميص عثمان الذي أجج نار الفتنة وأدى إلى حوادث 1860، والجدير بالذكر أن نصارى الشام كانوا

يعتقدون أن السلطان العثماني هو الذي أصدر أوامره بإبادة النصارى حيثما وجدوا، وإن كان هذا الاعتقاد فيه نوع من المغالاة،لكنه لا ينفي مسؤولية السلطان العثماني وعملاءه الذين شجعوا الدروز على هذا العمل وخاصة والي دمشق أحمد باشا. [68]ويفسر محمد أنيس ذلك بأن السلطان العثماني كان يحقد على فرنسا، لأنها وقفت موقف المؤيد لثورة اليونان، ولمحمد علي في مشروعاته ضد الدولة العثمانية في سوريا، وهذا هو السبب الذي دفع بالسلطات العثمانية بعد انسحاب محمد علي من الشام، لبذل مساعيها لإضعاف قوة الموارنة الذين كانوا يحضون بحماية فرنسا. [69]وإن كان للعثمانيين يد فيما جرى فهو دليل على قصر نظرهم لأنه منح فرنسا فرصة نادرة للمطالبة بضرورة حماية الأقلية الكاثوليكية التي كان ينحصر دورها في تأكيد وتعزيز نفوذ فرنسا السياسي. [70]

نستنتج مما سبق ذكره أن فرنسا والدول الأوروبية كانت تسعى لإثارة المسألة الشرقية بمعنى التخطيط لكيفية الاستيلاء على أملاك الدولة العثمانية، لكن ليس عن طريق القوة مثل روسيا، لكن بواسطة حماية الدين المسيحي كذريعة للتدخل في كل مرة، ونستنتج كذلك أن الأمير عبد القادر كان محور السياسة الفرنسية في المشرق، وكان يشكل إلى جانب فرنسا طرفا من أطراف الصراع بين الدول الأوروبية على أملاك الدولة العثمانية، والسؤال الذي يطرح نفسه : هل كان الأمير على دراية بتخطيط نابليون ؟ وإن كان الجواب بنعم فهل كان له أن يقبل بهذا الدور الذي اختارته له فرنسا بمعنى أن يكون رجل الصراع وليس رجل السلام والحوار؟

إذا كانت الحكمة تعني أن يعرف الإنسان متى يقدم ومتى يحجم، فالأكيد أن الأمير عبد القادر كرجل سياسي قد عرف أحوال الشام، وعرف كذلك وضع الدولة العثمانية المتدهور. ولذلك نعتقد -استنادا إلى ما سبق ذكره – أنه لم يرد الانغماس في دوامة اللعبة السياسية، بل الفخ الخطير –كما يقول سعد الله-، وكان ملتزما بما وعد به أنه لن يستأنف الجهاد والحكم تطبيقا للشريعة الإلهية، [71] ولعل ما ذكره سعد الله عن رد الأمير على محدثه حين عرضت عليه الإمارة :" دع الأمور تنضج "[72] معناه أن يحاول تحليل هذا الأمر والتروي فيه قبل الإقدام على القبول أو الرفض، وفي ديسمبر 1860 أي بعد أشهر قليلة من أحداث الشام،عبر الأمير عن نضج سياسي عندما قرر الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية التي تمثل وحدة المسلمين،عندما سأله السيد "بوجلا" : "طرح اسمك في الصحف الفرنسية كحاكم لسورية، هل وصلتك هذه الأخبار ؟ " فرد الأمـــير :" نعم، وإذا لم أكن مخطئا فهذا هو أحد الأسباب الرئيسية لما يبديه الأتراك من غيظ اتجاهي وتنكيد لي،لكن فلتطمئن تركية، إنني أنهيت مسيرتي السياسية ولا أطمح إلى سلطان على البشر أو إلى مجد في الدنيا، أريد أن أعيش من الآن فصاعدا في طمأنينة الهناء العائلي،

والصلاة والسلام،" [73] لكن الرد الصريح للأمير جاء سنة 1865 على لسان مستشار نابليون "إسماعيل عربان" في فرنسا، وكان ذلك أثناء زيارة الأمير لفرنسا حيث سأله "نابليون" عن رأيه في مشروع إمبراطورية عربية، فرد الأمير بـ"لا" جازمة، الأكيد أن الأمير فهم اللعبة، ورفض إتباع الألاعيب الفرنسية في المشرق، [74]

كذلك ينبغي التذكير أن تصرف الأمير سنة 1860 المناصر للمسيحيين لا يعني أنه لم يبدي موقفه بصراحة إزاء السبب الأساسي الذي أدى إلى الصراع الطائفي الذي هو الجزية – كما سبق الذكر–، بعدما التزم الأمير الصمت لمدة سنة حيث رفض توضيح ما بفكره عندما طلب منه أن يكون أكثر صراحة في ما يخص تلك الأحداث،والمناسبة كانت زيارة الكونت "دي فوغوه" وهو مستشرق وعالم آثار جاء إلى دمشق بهدف الدراسة والبحث للآثار المسيحية في سوريا، روى "فوغوه" قصة زيارته للأمير التي تطرق فيها إلى قضية مذبحة المسيحيين، وسلوك المسلمين وفقا لإرشادهم الفقهي،وموقف الأمير من أهل الذمة، وكان ذلك كما يلي : "سأل أحد المحاورين الأمير عن رأيه، من وجهة نظر الفقه الإسلامي في سلوك الدمشقيين، فأجاب الأمير الذي يعتبر من الفقهاء : "لقد كانوا على خطأ في استخدام حق لهم (المسلمين) لكن حقهم لا نزاع فيه، فالمسيحيون لم يدفعوا الخراج (الجزية)". [75]

وحسب هذا الرأي فإن الضريبة التي أقدم السلطان عبد المجيد على إلغائها سنة 1856 بضغط من الدول الكبرى هي محور الصدام، وحسب الشرع الإسلامي يعتبر المسيحيون أهل ذمة يجب حمايتهم، لكن يجب عليهم احترام القوانين أي دفع الجزية مقابل ذلك، وإن كان الأمير لا يعارض هذا الشرع الذي أقره الإسلام فإنه لا يتفق مع المسلمين حول الأسلوب الذي اتبعوه للتعبير عن رفضهم لذلك التصرف، وبذلك ندرك موقف الأمير على حقيقته فهو يرفض العنف والصراع كأسلوب لتسوية الخلافات بين المسلمين والمسيحيين، ويرى أن الحوار هو البديل لذلك، ومن خلال ما سبق يتضح أن موقفه من فتنة الشام لا يعني نصرة المسيحيين ضد المسلمين بقدر ما هو تذكير للمسلمين بتعاليم دينهم، ووصايا رسولهم فيما يخص أهل الذمة من منطلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه النتيجة بالتأكيد تدعم طرحنا من أن الأمير عبد القادر هو رجل الحوار بين الأديان،وإن كان مشروع المملكة العربية والأمير عبد القادر إمبراطورا لم يرقى إلى مستوى التطبيق. وفي ذلك فإن الأوروبيين في سعي مستمر لضرب المسلمين من الداخل باستعمال الشخصيات المسلمة التي لها تأثير في الأوساط المسلمة، وكانت الماسونية هي أشد الحركات خطرا على الإسلام، فماذا تعني الماسونية؟ وماهي أهدافها؟ وما علاقتها بالأمير عبد القادر؟ وما موقف هذا الأخير من هذه الحركة ؟

2 - الأمير عبد القادر والماسونية :

يقول المؤرخ الماسوني جرجي زيدان في كتابه" تاريخ الماسونية العام" أن الأمير عبد القادر اعتنق الماسونية في مصر وأدخلها إلى سوريا سنة 1864.[76] ويقول سعد الله أن اسم الأمير ارتبط في بعض الكتابات باسم الحركة الماسونية،[77] وقدم المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي وثائق في المجلة التاريخية المغربية -يقول أنه وجدها في وثائق الخزانة المكتبية بالرباط وإدارة المكتبة الوطنية بالجزائر. واستفاد التميمي كذلك من "كسافيي ياكونو" الذي أمده بنسخ من رسائل الأمير لدى انتمـــائه إلى جمعية البنائين الأحرار، وتدافع الحفيدة الأميرة بديعة الحسيني عن جدها، وتنفي انتماءه للماسونية،وترد بقوة على ما جاء به التميمي.[78]ويضيف سعد الله كذلك أن جدلا قام بين ياكونو ومحفوظ قداش ومحمد شريف الساحلي حول انتساب الأمير لجمعية البنائين الأحرار، ويبدو لسعد الله أن الجدل سيستمر لأن الوثائق القاطعة غير متوفرة. ومما أن باب البحث مازال مفتوحا، وتخطيا للحساسية نطرح السؤال التالي : ما الخطأ في أن نقول الأمير عبد القادركان ماسونيا في الستينات من القرن التاسع عشر ؟ إننا لا ندعي بأننا نستطيع الإجابة على هذا السؤال وفي نفس الوقت لن نخطو خطـــى من يسارعون مباشرة لنفي هذا الأمر وردها إلى مجرد إدعاءات[79]، لكن هي محاولة لتوضيح الأسباب التي جعلت الحركة الماسونية تتقرب من الأمير، وأسباب انجذابه نحوها، ومصير تلك العلاقة، حسب ما توفر لدينا من معلومات،

من خلال قانونها الأساسي تطرح الماسونية[80] نفسها على أنها مؤسسة إحسانية وجمعية فكرية تسعى إلى استقطاب ذوي النفوس الحرة والأخلاق الحسنة الراغبين في العمل من أجل تحسين الشروط المادية والمعنوية للبشرية،[81] واتخذت الماسونية شعار الثورة الفرنسية حرية مساواة إخاء وأطلقت عليه المثلث الماسوني، أضف إلى ذلك فالماسونية تمجد المسيحية والتقدم والتسامح، ومن خلال بنودها تشترط على الأعضاء الالتزام بالأخلاق الكريمة من أجل السعادة البشرية،[82] وتطمح الماسونية إلى أن تكون شمولية، بحيث لا تتخطى الحدود السياسية والجغرافية الفاصلة بين الأقطار والأمم فحسب، وإنما أيضا الحواجز العقائدية الفاصلة بين الأديان والأحزاب،[83]

وإذ تبدو تعاليمها ومبادئها إنسانية، فإن الماسونية لا تبتعد في المعاملات عن تعاليم الأديان، ولعل هذه المبادئ هي التي أغرت الفئات المؤمنة بالحرية والأخلاق الإنسانية، وحرية الضمير الفردي والتسامي في الفضائل، والعمل من أجل السعادة العظمى في هذه الدنيا،وكانت الماسونية كذلك تدعي بأنها تمثل التطبيق الفعلي لتعاليم المسيح -عليه السلام- الفاضلة " إن كلكم إخوة والله خالقكم "،[84]

وعلى خلاف هذا الرأي يرى آخرون، نأخذ على سبيل المثال لا الحصر،أبو القاسم سعد الله ومحمود شاكر، أن ظاهر الماسونية هو غير باطنها، وإن كانت في ظاهرها مسيحية فإنها مؤسسة على تعاليم أخرى ومنها اليهودية، ولكنها مكتسية ثوب المسيحية لأنها كانت الدين المقبول في أوروبا آنذاك، [85] وتدعيما لهذا الرأي يقول محمود شاكر:" إن الماسونية تعمل بوحي يهودي وأسرار يهودية، واليهود هم الذين يشرفون عليها، وينتمي إليها الذين بحاجة إلى دعم وخاصة الزعماء، ومن يريد لنفسه الزعامة ممن لا مبدأ لهم ولا دين إن كان يعرف حقيقتها وأنها منظمة سرية، [86] ويضيف محمود شاكر أن هدف الماسونية الحقيقي غير العلني هو توجيه اهتمامها إلى البارزين كي تستفيد منهم في تحقيق مسعاها، وتستطيع أن تكلفهم بخدمات لغيرهم كي تجلبهم إليها، أو تحقق على أيديهم بعض أغراضها. [87]

وفي القرن التاسع عشر اختلف خط سيرها الفكري والسياسي من قطر إلى آخر، حيث تحولت في انكلترا إلى واحدة من مؤسسات السلطة، وفي الولايات المتحدة الأمريكية إلى نوع من أندية مغلقة تسعى للأعمال الخيرية، وفي فرنسا ارتبطت بعلاقة قوية بالتيارات السياسية المتصارعة، واستغلها نابليون الثالث بشكل كبير للاستفادة منها في التوسع والهيمنة، ومراقبة نشاط الكنيسة الكاثوليكية، وهي بدورها دعمته دون حد. [88] بهذا الطرح تتضح بالتأكيد الهوية الحقيقية لهذه المؤسسة التي لا تعدو أن تكون سوى مؤسسة استعمارية كغيرها من المؤسسات التي حاولت فرنسا استغلالها في ذات الفترة التي تم فيها الترويج للمملكة العربية والأمير عبد القادر إمبراطورا عليها.

كما سبق الذكر فإن "جرجي زيدان" ذكر بأن الحركة الماسونية الرمزية دخلت دمشق بمساعي الأمير عبد القادر، وأن أول محفل تأسس فيها هو محفل سوريا بشرق دمشق سنة 1864، وإن كانت المجلة الماسونية (أكاسيا) عدد جوان 1994 تنفي ذلك بذكرها إن الماسونية انتشرت في سوريا ولبنان سنة 1738، وذلك بانضمام نخبة من رجالات دولتي المشرق سوريا ولبنان إلى المحفل الأكبر الانكليزي، [89]

سنحاول ربط هذا التعريف النظري والعملي للماسونية بالأمير عبد القادر، وليس معنى أن المجلة أكاسيا التي نفت ما ذكره جرجي زيدان أننا سنضطر للتوقف عن مواصلة بحثنا والتسليم بذلك الأمر بل نتقصى الأمر انطلاقا من الفترة التي بدأت تتهاطل عليه الهدايا والأوسمة، من بين الأوسمة التي تحصل عليها الأمير عبد القادر على موقفه النبيل تجاه نصارى الشام، وسام ماسوني من محفل الشرق الكبير في فرنسا، وهو عبارة عن رسالة تهنئة، يقول. "برونو إيتيان" أن الأمير عبد القادر منذ تلقيه الرسالة الماسونية، عمد إلى

الاستماع إلى تفسيرات عن أهداف هذه الجمعية ونشاطاتها.وكان "شاهين مكاريوس" الذي ربطته بعائلة الأمير صداقة حميمة هو الذي قدم تلك التفسيرات للأمير، وهو من أغرى أولاد الأمير للانتساب لهذه المنظمة فيما بعد.[90]

وذكر "برونو" أن الكاتب "زراغون " قال سنة 1993 بأن تشكيك بعض المؤرخين الجزائريين في تأكيداته، وحتى في الوثائق والمراجع التي نشرها جزئيا في بعض المجلات، أوجب عليه الفصل في سرد هذا الحدث الذي يتمثل في زيارة أحد الماسونيين الزائرين الأمريكيين وهو "روبير موريس" واللقاء الذي أجراه في دمشق بتاريخ 7 أفريل 1868، حيث صحبه الأخ "ناصيف مشاقة " بعد اجتماع ماسوني إلى الأمير عبد القادر الذي قام بمعانقته على الطريقة الأخوية الماسونية، ويقول "روبير موريس" أن اسم الأمير كان مدرجا في جداول محفل سورية في دمشق من دون توفر برهان على حضوره اجتماعات ذلك المحفل، [91]

ويتحدث "برونو" – نقلا عن مختلف المجلات الماسونية – عن الاهتمام الكبير الذي خص به الأمير من قبل الماسونيين، وعن تصرفاته البطولية في فتنة الشام،حيث ركزوا على مقولة الأمير المتمثلة في اعتبار جميع البشر إخوة له، وإن كان هذا السلوك تعبير إسلامي يتصرفه كل مسلم ورع تجاه أهل الذمة، فإن الماسونيين الذين يحقدون على الإسلام اعتبروا هذه الصيغة من قيمهم الخاصة،ولم يكتف هؤلاء بذلك بل روجوا في مجلاتهم لتلك الحادثة التي تخدم مبادئهم وأهدافهم على النحو التالي : " كل أوروبا، وكل العالم المتمدن قد ارتعش ألما واستنكارا للأحداث التي أدمت سوريا، وبينما كان التعصب يثير بهيجانه كتل الدهماء الجاهلين العميان لتنقض على المسيحيين التعساء، أحست الإنسانية التي أخرستها رهبة هذه التصرفات الوحشية بالعزاء عند رؤية مسلم، رجل حاربنا مدة طويلة يجـــعل من صدره الباسل الشهم درعا لوقاية إخواننا. "[92]

ولعلنا ندرك مما سبق ذكره كيف تفاعلت جمعية البنائين الأحرار مع موقف الأمير الذي يتماشى مع مبادئها وهدف إنشائها حسب ادعائها،ولكي لا تتخلف عن ركب الجمعيات والأمم المكافئة للأمير، قرر محفل هنري الرابع توجيه رسالة تهنئة إلى الأمير مع حلية كرمز وتقدير، وحسب ما ذكره "برونو " فإن الأمير لم يتأخر جوابه الذي حوى طلبا بالمسارة (الانتساب)، وعندئذ أدرك هذا المحفل أهمية هذا الانتساب لمستقبل الماسونية في الشرق، ولذلك أبدى الماسونيون عناية خاصة لطلب الأمير، وسعوا باهتمام إلى وسائل تحقيقه، حيث وجهوا للأمير رسالة أخرى لاطلاعه على شروط الانتساب، وعلى الأسئلة التي يجب أن يجيب عليها، [93] وهي عبارة عن أسئلة تقليدية تتمحور حول واجبات

الإنسان نحو الله وواجبات الإنسان نحو أخيه الإنسان وواجباته نحو نفسه، وحول خلود الروح ومساواة البشر أمام الله، وكيفية تحقيق التسامح والأخوة.[94]

ويقول "برونو" بأن الأمير أجاب بالطريقة الأكثر صراحة ووضوحا (فيفري 1861)، بشكل أرضى المحفل الذي كلف السيد "فنيز" (Vennez) صاحب الرتبة الأولى في ذلك المحفل أن يتكفل بعملية انتساب الأمير، وتم قبول انضمامه إلى المحفل الماسوني في أفريل 1861 على يد صاحب السمو الأمير لوسيان مورا (Lucien Murat) الذي أراد أن يحقق للماسونية هذا الكسب المجيد،[95] وبعد أن تولى المارشال مانيان (Magnan) منصب الأستاذية الكبرى للماسونية، تابع المشروع بإصرار. واغتنم محفل هنري الرابع فرصة حلول الأمير بالإسكندرية في طريقه إلى الحجاز، فاتصل بمحفل أهرامات مصر وهو محفل فرنسي في الإسكندرية، وأطلعه على الموضوع بكامله، واقترح عليه عند الضرورة إجراء مسارة الأمير باسم محفل هنري الرابع، وقبل محفل أهرامات مصر ذلك العرض، وتابع المساعي مع الأمير عبد القادر الموجود آنذاك في مكة أو المدينة، وفي نهاية شهر جوان 1864 تم إجراء المسارة مع الأمير بصفة رسمية، وتنسيبه في الدرجة الأولى من محفل أهرامات مصر، يقول "برونو" أن هذه الحقائق السالفة الذكر- وجدها في مجموع النتاج الماسوني وعلى سبيل المثال مجلة "أكاسيا".[96]

وهكذا اعتبر الأمير عبد القادر بالنسبة للماسونيين الفأس الموضوعة على جذر شجرة سم الجهل ذات الثمار المميتة، والموجهة لاقتلاعها في زمن قريب، وحسب رأيهم فإن الطاقة التي يمتلكها الأمير عبد القادر، والقدرة على الإقناع لا يمكن أن تبقياه متوانيا عن فعل الخير، وإن هذا الرجل الذي وضع نفسه في خدمة الله قد تسلح بمشعل الحقيقة التي تدفعه للعمل على تنوير من حوله،[97] أضف إلى ذلك فإن مجرد انتساب الأمير يعتبر بادرة سلام ووئام ستسهل الكثير،إذا عني بها، مهمة الأمير لدى مواطنيه؛ لأن نفوذه القائم على الجرأة والفضيلة سيجعل كلمته مسموعة، ولذلك يرى الماسونيون أنه يجب مساعدة الأمير واطلاعه، وبقدر الإمكان، على سير الماسونية في العالم، ولهذا السبب احتفل محفل هنري الرابع بمسارة الأمير كحدث واعد بمستقبل زاهر للماسونية، وعلى هذا الأساس يجب على الأمير أن ينشر أفكار ومبادئ الماسونية بين السكان العرب كالسيف ينغرز في صخر البربرية. والمعنى الحقيقي لمهمة الأمير يتمثل في إنشاء محافل، والمساهمة في استشراق الماسونية عن طريق نشر أخلاقها ومبادئها في الشرق.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخطاب الماسوني كان يرتكز بشكل مطلق على مفهوم ذلك العصر أي نظرة الغرب إلى الإسلام من "كينه" (Quinet) إلى "رينان" (Renan)

مرورا بـــ"دي ساسي" (De Sacy)، هذا المفهوم المتشبع بروح العداء للإسلام وتاريخه، حيث يصور الشرق في صورة الشعوب المتخلفة فطريا، و أن تولد لدى الشرقيين القناعة اللازمة بتقدم الغرب الأوروبي وتفوقه الحضاري الفطري عبر العصور، وأن المسؤولية الملقاة على الشعوب الأوروبية من خلال فكرة "عبء الرجل الأبيض" مسؤولية إنسانية حضارية تجاه العقلية الشرقية العاجزة بالفطرة، والتي لا تتمتع بالقدرة على التحليل والنقد والتركيب، بل أنها عقلية بسيطة ساذجة تؤثر عليها الخرافات وترفض التطور.[98] ومن خلال المجلات الماسونية ينكشف الهدف الحقيقي للخطاب الماسوني والدور الذي يجب على الأمير أن يقوم به :" لا نعرف كثيرا كيف نؤسس محافل في إفريقية الفرنسية، وتأثير الماسونية على العرب يمكن أن يشكل عونا كبيرا للاستعمار، والمسلمون يؤمنون بمعتقدات لا حصر لها تتلاءم كليا مع مبادئ الماسونية، وهكذا فإن مؤسستنا لا تخشى في البلاد الإسلامية أن تلقى المقاومات التي يبـــديها رجال الكهنوت في البلدان الكاثوليكية. "[99]

وهكذا يتضح لنا حقيقة الماسونية، وحقيقة ما تسعى إليه عن طريق إغراء الأمير عبد القادر للانتساب إليها، إنها عين الاستعمار وخادمه، ونعتقد أنه مثلما كانت الماسونية تخطط للاستفادة من نفوذ الأمير في الشرق، كان هو بدوره يرى فيها مؤسسة يمكن أن يستغلها في الاتجاه المعاكس من الشرق إلى الغرب، وندعم رأي "برونو" القائل بفرضية أن الأمير كإنسان تقي زاهد ومتصوف يرى في هذه المنظمة طريق جمعية مسارية تريد أن تضع نفسها جسرا بين الشرق والغرب بهدف التعاون والتواصل.[100]

وبالرغم من أن الأمير عبد القادر كان مؤمنا بأن انتسابه إلى الماسونية لا يؤثر في إيمانه، ولا يتناقض مع سلوكه الإنساني لأن مبادئها وتعاليمها تتماشى مع ما جاءت به الأديان السماوية، فإنه مع ذلك لم يحقق للماسونيين ما يطمحون إليه من وراء استمالتهم له،[101] وإن كان الانتساب للماسونية في ذلك الوقت لا يعد خروج عن الدين، أو تهمة، أو تشكيكا في وطنية المنتسب لأن سمعة الماسونية في تلك الفترة كانت حسنة،[102] ويبدو أن الأمير عبد القادر بفطنته اكتشف أن الماسونية النظرية غير الماسونية العملية، ولعل ما يؤكد ذلك زيارته لفرنسا عام 1865 وعدم حضوره الاحتفال الماسوني الذي أعد له، وما أدى ذلك من استهزاء صحافة اليمين من الجدل الذي ثار بين الماسونيين حول غياب الأمير، لكن الأمير عبد القادر استقبل وفدين في 28 أوت 1865، وأدلى إليهما بتصريح أهم ما جاء فيه أنه يعتبر منظمة البنائين الأحرار كأول مؤسسة في العالم جديرة بالانتساب إليها، ومن لا يجاهر بالعقيدة البنائية يعد رجلا ناقصا، ويأمل الأمير يوما أن يرى فيه انتشار الماسونية في العالم، ويومئذ يرى الأمير أن كل شعوب العالم ستعيش في سلام وأخوة، مع ذلك فقد كشف الأمير عن تفطنه لحقيقة المهمة التي خصته بها جمعية البنائين

الأحرار عندما أجاب عن الأسئلة التي طرحت عليه في 30 أوت 1865 من قبل محفل هنري الرابع، وكان السؤال الأول حول الأفكار التي يمكن أن يكونها الشرقيون عن الماسونية، حيث أجاب الأمير أن سكان الشرق يسيئون الظن بالماسونية، وينظرون إلى الماسونيين عامة كأشخاص كفار،لا تقيدهم شريعة، ومستعدين لإشاعة الفوضى في المجتمع، وأضاف الأمير أنه كان يشاطر سكان الشرق في نظرته للماسونية،لكنه اقتنع بأنها أروع مؤسسات الشرق بعد أن تعمق في دراسة أهدافها وشرائعها.[103] ونعتقد أن جواب الأمير كان يعبر عن الماسونية من الناحية النظرية، لأن موقفه من الماسونية العملية نستشفه من خلال جوابه عن السؤال الثاني الذي طرحه عليه محفل هنري الرابع وهو "هل تعتقد أن بإمكانك نشر الماسونية في هذه المناطق ؟ " فأجاب الأمير :" إن الشعوب غير متهيئة بعد لها، بل وأعتقد أن من المتعذر حاليا إقامة اجتماع في البلاد التي أسكنها، فالاجتماعات السرية ممنوعة قطعا، ويلاحق الأشخاص الذين يحضرونها،" وعندما ذكروا له أن ازدهار بعض البلدان الغربية مثل هولندا وانكلترا والولايات المتحدة وفرنسا، ذو صلة بإشعاع الماسونية فيها، أجاب الأمير بابتسامة حزينة تبدو على شفتيه " إن تلك البلدان حرة، والأمر في الشرق مختلف،"[104]

إن صح هذا القول فإن الأمير كان ذكيا، وواعيا بأن الاستعمار لن يسمح بتطبيق شعار الماسونية أخوة ومساواة وعدالة، لأن الدولة الفرنسية التي رفعت هذا الشعار هي نفسها التي تريد أن تستعمر بلدان الشرق وهي نفسها التي احتلت بلده الجزائر، وما الماسونية إلا أداة تستعملها لتثبيت وجودها في الشرق، ويعتبر جواب الأمير بمثابة الرد الصريح بأنه لا ينوي الترويج للماسونية أو الدعوة إليها، ولعل ما يدعم استنتاجنا هو شهادة "روبير موريس" التي سبق وأن ذكرناها الذي بالرغم أنه أثبت بالوثائق أن اسم الأمير كان مدرجا في جدول أعمال جمعية البنائيين الأحرار، لكنه لم يجد البرهان على أن الأمير كان يحضر اجتماعات ذلك المحفل،

إذن التعاليم والأخلاق الدينية النظرية التي جذبت الأمير عبد القادر إلى الماسونية هي نفسها التي جعلت الأمير يبتعد عن هذه جمعية عندما اكتشف أهدافها العملية، لأنه بحكمته أدرك أن أي حركة ليس أساسها الاقتناع بواجب الإنسان نحو خالقه وبني قومه لا تستحق أن تكون أداة لنشر الخير والتواصل بين البشر،[105] ويمكن القول أن الأمير عبد القادر كان حكيما إلى أبعد الحدود في انصرافه عن هذه الحركة وبخاصة عندما بدأ نشاطها تشوبه الشكوك بعد أن رفعت عدة شعارات منها المعادية للدين، وغيرت جلدها عدة مرات حتى غادرها أغلب أعضائها الذين يؤمنون بوجود الله وخلود النفس، وصدر إعلان يكفرها من البابا نفسه سنة 1865 لتنافيها مع العقيدة.[106] وأصبحت الماسونية

بعد ذلك تؤيد علانية الاستعمار والصهيونية [107]، ودعمت الجمعيات السرية التي تعمل ضد الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، كما ساعدت بقوة اليهود في مسعاهم للهجرة إلى فلسطين، [108]

خلاصـــة

قمنا بدراسة موضوع الأمير عبد القادر في الشام وإن كانت الدراسات الوطنية في هذا الموضوع ضئيلة جدا، وإن كنا في ورقتنا هذه تجاوزنا الطرح الكلاسيكي الذي تناول دراسة حياة الأمير عبد القادر دراسة تقريرية سردية تتغنى في معظمها بملاحمه وبطولاته الجهادية ضد فرنـــسا، وما إلى ذلك من سلوكات فردية قام بها الأمير عبد القادر، فإننا نقدم الأمير بوجه جديد وحاولنا التعرف على هذه الشخصية برؤية جديدة من خلال تبيئته أي وضعه في بيئته التي عاش فيها وانفعل وتفاعل معها، إنها بلاد الشام التي كانت تعايش أخطر محطات المسألة الشرقية،والذي نفي إليها الأمير حامـــلا معه كل ما ورثه في الجزائر من قيم وتجارب وفكر وثقافة.

لقد أدرك الأمير أن المغرب الذي تيسر احتلاله بقوة السلاح يختلف عن المشرق الذي له طرائق وأساليب أخرى للسيطرة علية دون السلاح، وبما أن المشرق هو مهد الديانات السماوية فكان يتوجب على الأمير المتدين الورع أن يتصرف ويتخذ مواقف تتجاوب مع حاجات عصره، لقد أدرك الأمير مدى قوة النفوذ المادي و العسكري الأوروبي في الجزائر، ووقف على ذلك النفوذ في المشرق، وأدرك مدى ضعف المسلمين، وأيقن أن كل محاولة بالسلاح ضد الغرب محكوم عليها بالفشل بمعنى إقراره بالحقيقة التي تذوق مرارتها سنة 1847.

وعليه أسس الأمير في المشرق لسياسة بديلة عن مواجهة الآخر أي الغرب القوي بالقوة التي يراها غير متكافئة، وسياسته الجديدة هي الاعتراف بالآخر وبقوته وقبوله والإقبال عليه، وفتح أبواب الحوار بين المسلم الضعيف ماديا والقوي روحيا والمسيحي القوي ماديا والضعيف روحيا لإحداث تكامل وتواصل تنشده البشرية للعيش بسلام،ومحاولة تغيير واقع ذلك المسلم عن طريق الاحتكاك بالآخر، والأخذ منه علومه وتقنيته أي الاستفادة منه.

كما كان الأمير إلى جانب ذلك رائدا في العمل السياسي الهادف إلى التعامل مع الغرب الأوروبي في إطار المحافظة على القيم الحضارية الإسلامية بالرغم من أنه كان يدرك بأن هذا الغرب هدفه الاستغلال والسيطرة،وكما شخص الغرب داء ودواء الشرق في

دينه، فإن الأمير بدوره رأى بأن داء الغرب يكمن في دينه، وأن السبيل لتقريب المسافة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية هو إرساء قواعد الحوار بين الأديان، والتركيز على القواسم المشتركة بين الأديان وهي : الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح، حتى يتحقق الهدف من الحوار ويكون له معنى وفائدة.

إن تجربة الأمير عبد القادر في الشام تفرض نفسها كمنهج للتعايش بين البشر صالح لكل مكان وزمان، يتعين على الباحثين إثباته وتثمينه لتوطيد صلة بين أبناء الوطن الواحد من جهة وتوثيق روابط الصلة بين المشرق والمغرب من جهة ثانية ونشر ثقافة التعايش والتسامح بين البشر دون النظر إلى الجنس أو العرق أو الدين من جهة ثالثة.

وإذا كان هناك إجماع أن الذين يرغبون بتقارب الحضارات وتحالفها وعيش الجميع بسلام يشكلون أقلية، فهناك من يرى بأن الكثير من الناس الذين يرغبون في رؤية عالم مثالي يملأه الحب، لكن هناك قلة منهم ممن يمتلكون الجاهزية والمعرفة والشجاعة والجرأة للعمل والسعي من أجل السلام، أو أن يعرضوا أنفسهم للخطر من أجله، ونعتقد أن الأمير عبد القادر كان من بين تلك القلة.

نختم ورقتنا المتواضعة بطرح سؤالين: هل نظرية الحوار الروحية التي أسس لها الأمير في المشرق كمنهج للتعايش بين البشر والبقاء هي الرد الصريح على نظرية الصراع المادية الذي أسس لها داروين قبل موقف الأمير بسنة واحدة 1859 من أجل البقاء؟ وهل نعتبر نظريته تلك بمثابة منطق جديد للحوار الحضاري لتفنيد نبوءة "هانتنغتون" التي تتكهن بمواجهة دموية آتية بين الحضارات؟ هذا عن البعد العالمي والإنساني، أما على المستوى الوطني فسؤالنا الثاني هو: هل كان الأمير عبد القادر حكيما إلى درجة مكنته حكمته من التنبؤ بأن الجزائر وفرنسا ستتوصلان إلى ضرورة إيجاد صيغ للتعاون والصداقة ؟ وفي حالة التصديق على معاهدة الصداقة بين فرنسا والجزائر إذا اعتذرت فرنسا للشعب الجزائري فهل سنؤرخ لأصول هذه المعاهدة في المستقبل بالرجوع إلى 1852 أي التاريخ الذي يمثل اعتذار لويس نابليون الثالث للأمير وبداية عهد الصداقة القادرية الفرنسية؟

قائمة المصادر والمراجع

(1) انطوان ضو : ثقافة حوار الحضارات، محاضرة قدمت في ملتقى كيف نواصل مشروع حوار الحضارات، دمشق، 19-21 /2002/01، ص157.

(2) عبد الله محمد العشي: حوار الحضارات بين المركزية الغربية والفكر الإسلامي، بحوث ندوة "الإسلام وحوار الحضارات " الرياض 2004،ص267-292.

(3) انطوان ضو: المرجع السابق، ص 156.

(4) مانع بن حماد الجهني: الإسلام والحوار الحضاري، مداخلة قدمت في ملتقى الإسلام وحوار الحضارات،الرياض، 2004، ص136.

(5) مانع بن حماد الجهني: المرجع السابق، ص 137.

(6) عبد الله محمد العشي: المرجع السابق، ص 267-292.

(7) انطوان ضو: ثقافة حوار الحضارات، ص 157.

(8) محمد عابد الجابري: **التراث والحداثة**، المركز الثقافي الغربي، بيروت، ط1، 1991، ص 176-177.

(9) عمر عبد العزيز عمر: **تاريخ المشرق العربي**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص 14-17.

(10) محمد أنيس : **الدولة العثمانية والشرق العربي** (1514-1914)، القاهرة، دار الجيل للطباعة، (ب.ت.ن) ص 222.

(11) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي** 1830-1954، ج 5، بيروت،دار الغرب الإسلامي، 1998، ط1، ص 473-474.

(12) يبدو أن لشارل هنري الشرشل رأي آخر في هذا الموضوع إذ يقول في مؤلفه "حياة الأمير عبد القادر" ص 349، أن اختيار الإقامة في دمشق كان بناءا على اتفاق بين الأمير عبد القادر والإمبراطور الفرنسي لويس نابليون الثالث الذي أطلق سراحه من دون إعطاء أي تفسير. سنحاول في ثنايا هذا البحث ترجيح فرضية أن اختيار دمشق كان من تخطيط نابليون لغرض سيفصح عنه لاحقا.

(13) أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص 537.

(14) إحدى الطوائف الإسماعيلية (الإسلامية) التي ترجع جذورها إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي والإيمان بإمامته في القرن الحادي عشر، وهم من العرب من الناحيتين العرقية والحضارية ولغتهم العربية، استقروا منذ قرون في جبال ووديان لبنان وسورية وفلسطين،للمزيد من المعلومات أنظر: عبد الوهاب الكيالي : الموسوعة السياسية، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997، ص 676-677.

(15) شارل هنري تشرشل: **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبو القاسم سعد الله،الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2004، ص 350.

(16) نزار أباضة: **الأمير عبد القادر الجزائري**،دمشق، دار الفكر المعاصر، 1994، ص 15،

(17) المرجع نفسه، والصفحة نفسها،

(18) شارل هنري تشرشل : المرجع السابق، ص 351.

(19) برونو إتيين : **عبد القادر الجزائري**، ترجمة ميشيل خوري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار 2001، ط2، ص 289.

(20) شارل هنري تشرشل : **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2004، ص 351.

(21) برونو إتيين : المرجع السابق، ص 289. نقلا عن (تعليمات 14 كانون الأول 1855 - الوثائق رقم 7-9)،

(22) المرجع نفسه، ص 300.

(23) برونو إتيين : المرجع السابق، ص 305، وأيضا هنري تشرشل، ص 356-357.

(24) المرجع نفسه، ص 305.

(25) نزار أباضة : مرجع سابق، ص 16.

(26) هنري تشرشل: **حياة الأمير عبد القادر**، ص 360،

(27) نزار أباضة : المرجع السابق، ص 17،

(28) برونو إتيين : المرجع السابق، ص 318.

(29) هنري تشرشل، ص 363-364.وأيضا برونو إتيين، ص 345.

(30) نزار أباضة : المرجع السابق، ص 18.

(31) برونو إتيين : المرجع السابق، ص 305.

(32) قام أسقف الجزائر السيد هنري تيسيه H.Teissier بإخراج هذه الرسالة الموجودة في وثائق الأسقفية، وترجمتها إلى اللغة الفرنسية،للمزيد من المعلومات يراجع كتاب عميراوي حميدة : أوراق تاريخية،ص 19.

(33) احميدة عميراوي : **أوراق تاريخية**، الجزائر، دار الهدى، 2006، ص 21. وكذلك يراجع : Henri Teissier : L'emir Abdelkader et Les Chretiens , أعمال ملتقى الأمير عبد القادر 1998، ص 170.

(34) يوسف القرضاوي، **الحوار الإسلامي المسيحي** مؤتمر الدوحة 2003-2004، ص 25.

(35) اسماعيل زروقي: الإسلام وروح التسامح الحضاري في فكر العلامة ابن باديس، ملتقى الإسلام وحوار الحضارات، مجلد 3، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 2004، ص 383.

(36) نشرت هذه المذكرات التي كتبها الأمير في بروسة (تركيا)، في طبعة فرنسية حديثا من طرف René Khawam بعنوان : رسالة إلى الفرنسيين ، ينظر : Teissier: L'emir

Abdelkader et Les Chretiens ,P 169.، وللتذكير فإن الأمير ألف هذا الكتاب بطلب من الجمعية الآسيوية في باريس، سنة 185

(37) عمار طالبي: **الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2005،

(38) يعني هذا المصطلح الدعوة التي ظهرت في الجزائر بين الحربين تقريبا لتبشر بالعناصر المشتركة في الأديان الثلاثة وهي : الإسلام والمسيحية واليهودية، للمزيد من المعلومات يراجع كتاب : أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائري الثقافي، ج 6، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ط1، ص 424-437.

(39) يعد مؤلف الأمير هذا ثمرة الدروس التي ألقاها في دمشق في شرح آيات قرآنية، وأحاديث نبوية مخصصا لكل موضوع موقف، ويبدو تأثير الشيخ محي الدين بن عربي الأندلسي،

(40) محمد الصغير بناني : الأمير عبد القادر ومشروعه الإنساني، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر 1998، الجزائر، دار الحكمة، 1998، ص 123.

(41) عمار طالبي : **الامير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، ص 7.

(42) صلاح الدين كفتارو: الحريات الدينية لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الحوار الإسلامي المسيحي، مؤتمر الدوحة 2003-2004، ص45.

(43) صلاح الدين كفتارو : المرجع السابق، ص 45.

(44) Henri Teissier : Op Cit., P178.

(45) هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ص 45.

(46) Henri Teissier : L'emir Abdelkader et Les Chretiens، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر 1998، ص 175.

(47) ملتقى الأمير عبد القادر، جنيف 3-11 أفريل 2006.

(48) Henri Teissier : L'emir Abdelkader et Les Chretiens، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر 1998، ص 177.

(49) عبد القادر الجزائري: **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة العربية، 1966، ص 41.

(50) عمار طالبي : المرجع السابق، ص 7.

(51) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص 533.

(52) هنري تشرشل : المرجع السابق، ص 15-16.

(53) برونو إيتيان : عبد القادر الجزائري، ص 401.

(54) المرجع نفسه، ص 286، نقلا عن كتاب المواقف، موقف 83.

(55) يراجع مقال : عبد العزيز بوباكير: الأمير عبد القادر في المؤلفات الروسية، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر 1998، ص 113- 121.

(56) برونو إيتيين : المرجع السابق، ص 287،

(57) برونو إيتيين : المرجع السابق، ص 287،

(58) برونو إيتيين : المرجع السابق، ص 287،

(59) هنري تشرشل : المرجع السابق، 30.

(60) عمر عبد العزيز عمر : **تاريخ المشرق العربي**، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1998، ص 375.

(61) المرجع نفسه، ص 376.

(62) برونو إيتيين: المرجع السابق، 299.نقلا عن أرشيف الشؤون الخارجية، دمشق، الجزء السادس، الملف 15.

(63) أبو القاسم سعد الله : **الحركة الوطنية الجزائرية** 1860-1900، ج1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ط1، ص 18.

(64) ذكر فاروق عمر فوزي أن عددا من المستشرقين ابتدعوا أسطورة مفادها أن "شرلمان" أصبح حاميا للأراضي المقدسة في فلسطين، وأميرا على القدس، ذلك لأن بطريرك القدس أرسل إليه في عام 800م مفاتيح القدس وكنيسة القيامة بموافقة الخليفة هارون الرشيد، مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين، ويقف ضد تهديدات البيزنطيين البرية والبحرية للدولة العباسية، والهدف من إشاعة فرضيات كهذه سياسي =استعماري تزامن مع تدهور وتفكك الدولة العثمانية،وتنافس الدول الكبرى (روسيا وانكلترا وفرنسا وألمانيا) في الحصول على الامتيازات وحق الحماية للرعايا المسيحيين في الشرق، واستخدمت الدول الكبرى المؤسسة الاستشراقية للترويج لفكرة الحماية منذ عهد هارون الرشيد، لكي تستخدمها كسابقة تبرر بها حصولها على امتيازات من الدولة العثمانية. يراجع : فاروق عمر فوزي : الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص 148-150.

(65) محمد أنيس : **الدولة العثمانية والشرق العربي** (1514-1914)، القاهرة، دار الجيل للطباعة، ص 255-256،

(66) عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق، ص 357.

(67) Boualem Bessaih: **De Louis Philippe à Napoléon 3 L'EMIR ABDELKADER Vaincu Mais Triomphant**, Algérie, Editions ANEP ,2002, 163-164.

(68) عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص 374.

(69) محمد أنيس: المرجع السابق، ص 207

(70) المرجع نفسه، والصفحة نفسها،

(71) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 5، ص 539.

(72) شارل هنري تشرشل: **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ص 38،

(73) برونو إيتيين : المرجع السابق، ص 323.

(74) المرجع نفسه، ص 402-403.

(75) المرجع نفسه، ص 320.

(76) اسكندر شاهين : **الماسونية ديانة أم بدعة ؟**، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 1999، ط1، ص 27،نقلا عن : جرجي زيدان : **تاريخ الماسونية العام**،

(77) أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 6، ص 421.

(78) اسكندر شاهين : المرجع السابق، ص 109. ألفت الأميرة بديعة الحسيني عددا من الكتب في تاريخ الجزائر والأمير وأنجاله وأحفاده، وتقول أنها أجريت بحوث في هذه المواضيع، وكتبت كثيرا من المقالات في الصحف، منها في جريدة الشرق الأوسط عام 1990 في عددها 4273، وأيضا في عام 1995 وضعت له الشرق الأوسط عنوانا (الأمير عبد القادر لم يكن ماسونيا) في عددها 6012. وأوضحت الأميرة بديعة في هذه المؤلفات أن الأمير عبد القادر لم يستسلم، وإنه لم ينتسب بحياته لأي جمعية.

(79) يراجع كتاب الأميرة بديعة الحسني الجزائري : **ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل**، دمشق، مكتبة الأسد، 2001، ص 229-233. وذكرت الأميرة بديعة في الغلاف الخلفي لكتابها أن الزمن كشف زعم تشرشل بأن الأمير انتسب للماسونية لأن كتابه عن حياة الأمير صدر عام 1867، وزيارة أعضاء الجمعية للأمير في أثناء احتفالات قناة السويس وعرضهم لمبادئ جمعيتهم أمامه كان عام 1869.

(80) من الناحية العلمية يصعب تحديد أصول الماسونية نظرا إلى انعدام الوثائق بهذا الشأن، أما من الناحية الرمزية، فإن الماسونية تعبد نفسها إلى أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح، أي إلى التاريخ الذي تعتبره التوراة تاريخ بداية العالم، وأول إنجاز تفخر بإنجازه هو هيكل القدس، ويقول المحامي ضاهر الديب القطب الأعظم للمجلس السامي اللبناني الموحد :"إن جميع المحافل التابعة للمجلس السامي خاصة وشرق كنعان تنطلق بمفهومها الماسوني من النظرة الكنعانية منذ الملك الصوري"احيرام" والمهندس العظيم "حيرام أبي" الذي كانت له اليد الطولى في علم الهندسة وبناء القلاع والهياكل،..كان هدف الماسونية في زمن كنعان تحرير العبيد والعامة الذين كانوا يعملون في قطاع البناء ولذا كان شرطهم الأساسي لإقامة القلاع والقصور للملوك والحكام أن يعتقوا ويحرروا جميع العاملين في قطاع البناء ومن هنا كانت التسمية الأساسية "البناؤون الأحرار"، وقد ترجمت أيام اليونان والرومان والأوروبيين "فرانك ماسون." يراجع : اسكندر شاهين، الماسونية ديانة أم بدعة، ص 17.

(81) عبد الوهاب كيالي وآخرون : **الموسوعة السياسية**، ج 5، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996، ط 3، ص 656-657.

(82) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 6، ص 408.

(83) عبد الوهاب كيالي وآخرون: **الموسوعة السياسية**، ج 5، ص 657.

(84) أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 6 ، ص 409.

(85) المرجع نفسه، والصفحة نفسها،

(86) محمود شاكر: **ضياع الخلافة**، بيروت المكتب الإسلامي، 2003، ط1، ص 97.

(87) المرجع نفسه، والصفحة نفسها،

(88) عبد الوهاب كيالي وآخرون: **الموسوعة السياسية**، ج 5، ص 659.

(89) اسكندر شاهين، المرجع السابق، ص 27.

(90) برونو إتيين : **عبد القادر الجزائري**، ص 344.

(91) برونو إتيين : المرجع السابق، ص 345.

(92) المرجع نفسه، 357.

(93) المرجع نفسه، والصفحة نفسها،

(94) ناصر الدين سعيدوني: **عصر الأمير عبد القادر**، الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000،ص 189-190.

(95) المرجع نفسه، 190.

(96) برونو إيتيين، المرجع السابق، 358،

(97) المرجع نفسه، 360،

(98) المرجع نفسه، 354،

(99) **برونو** إيتيين: المرجع السابق، 361.

(100) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، 190،

(101) المرجع نفسه، 360.

(102) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج6، ص 422.

(103) برونو إيتيين: المرجع السابق، ص 400.

(104) المرجع نفسه، 401.

(105) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 190.

(106) المرجع نفسه، والصفحة نفسها،

(107) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 6، ص 422.

(108) محمود شاكر: المرجع السابق، ص 97.